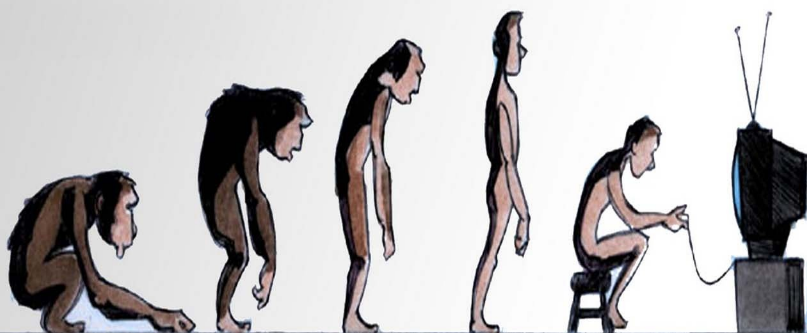
بحثاً عن إلـه

وقصص اخرى

Muahmmad Aboul Fadl



عَن الأهوّج الذي كَتب



دعنا نشرح الوضع ،أنت تقرأ في مجموعة قصصيّةٍ كريهة كلاماً مُستفزّاً ، ربما تجدُ فيها دليلاً دامغاً على دَناءةِ مَن يَكتبُ من الشبابِ اليوم،ومطيّةً لكراهية المُثقَفين والأوغاد ذوي العُوينات السَميكة،لكن دعني أُقسمُ لك أن عُويناتي أستبدَلُها مَرّتين في العامِ الواحد كيّ لا أبدو كمُثقف،وأن ما أكتبه مُجملاً لا يبدو خطيراً؛فلا تأخذه على محملِ الجدّ!

وتعريفاً لنفسي التي أحترمُها كيّ لا أُضطر لتفجير صدغي بمسدسٍ ٩ مم ، فأنا في العمر الذي دخّن الحشيش وقرأَ القرآن ، وصادق فتيّات وصلّى التراويح في مسجد عمرو بن العاص ، ويعشق صوت فيروز ويتأثر بترتيل المنشاويّ ، يرى في جيفارا ثائراً عنيفاً و يؤمن تمام الإيمان أن الإسلام هو الشريعة الأكمل .

العمر الذي تمرّد على القرن الحادي والعشرين ؛ فارتدى قميصاً مُشجراً و قبقاباً و شغل لياليه بصوت أم كلثوم ، ولما وجد تناغماً قد حدث بينه و بين أهله كبار السن مُتحجريّ العقول ، تمرّد

أكثر و ابتاع لنفسه آي فون و شغل منطقته بأكملها بموسيقى الميتال الصاخبة !

نعم أنا في العمر الذي لو وصفته بـ"مراهق" أهنته ، وإذا رأيته " ناضجاً " حمّلته ما لا طاقة له به ، فكما كان العاشق بين مهابة ورجاء ، فأنا في عمري ما بين طموحاتٍ وتسكعّاَت !

كنت طالباً في كلية الهندسة ، وظللّتُ فيها مُكرهاً حتى بلغت منها حنقاً في ٢ مدني ، وقررت أن أطلقّها ثلاثاً و أشوّه سُمعتها بين الخلْق ، درست بغيرِ انتظامٍ في كليّة الإعلام والآداب وتربية علم النفس ، وقرأت عن السينما و المسرح ، وأخرجت فيلماً قصيراً نال استحساناً من أناسٍ يخشّون عليّ من الانتحار يأساً ، وأخرجتُ مسرحيتيّن لجهات أشفقت أن أظل مُشرَدّاً بين الأوراق أتمتم بكلماَتي لنفسي ، وكدت أن أخرج الثالثة لولا أن ظروف الأمن آنذاك لم تسمح بمسرحيّة تهاجم النظام ، لست من المناضلين على أيّة حال كيّ أدعّي أني غضبت لإلغاء العرض .

ما قرأته كان كثيراً ، هذا ما أذكره بالفعل ، ولا أذكر ما طبيعة هذا "الكثير" الذي قرأته ، فقط في لحظات نقاشٍ عن الحرب العالميّة الأولى قد أقول - بلا وعيٍ - شيئاً عن الكساد الكبير ، وإذا سألني أحدهم عن ديستوفيسكي أذكر له "الجريمة و العقاب" ، ثم أشير إلى العصفورة على الشجرة مُتهماًّ إياها بالسبّ و القذف ؛ كيّ ينسى الموضوع برُمتّه !

ليست لديّ رسالة مُحددّة لأجلها أكتب ، لست مُثقفاً بما يكفي كيّ أحمل سراجاً أنير به الطريق للعامّة ، لست ذكياًّ بما يكفي لأدحض باطل أصحاب المذاهب الفاسدة ، ولست مُهذباً على الإطلاق كي ألتزم بلغةِ كتابةٍ لا تتضمّن سُباباً أو قذفاً صريحاً !

لكني أكتب لأن هذا ما يجعل حياتي أفضل ، ويوم أنهي مقالاً أو قصةً أو روايةً أو مسرحيّةً ، أشعر بالرضا التام عن نفسي ، حتى لو كان مقالاً مُملاًّ عن عمل المرأة ، أو قصةً سخيفة عن الحب من نظرة عين ، أو روايةً سقيمة عن الاحتلال

الإنجليزيّ الذي أفسد كلَّ شيء في الهند ، أو مسرحيّةً ليست أفضل من مقال عمل المرأة !

ربما تقرأ شيئاً يضحكك ، أو يبكيك ، ربما يجعلك حانقاً ، وقد يبعث الهدوء في أوصالك ..

هذا لا يجعلني كاتباً ناجحاً ، ولا يجعلك قارئاً مُمتنّاً ، هي كلمات لا تبقى في الذاكرة سوى لحظات ، فقط إن أثّرت بشكلٍ أو بآخر عليك ؛فقد علمت أنت الآن " من أين تؤكل الكتف " ، وعلمت أنا " حان الوقت لأستفيد بما أكتب ! " ، و إن أثارت حفيظتك .. فقد علمت " هذا هو الغباء ؛فاهدموه !"،وحينها أتعلم " فضيلة الصبر ! " .

مُحمَّد أبو الفَضل

بحثاً عن إله

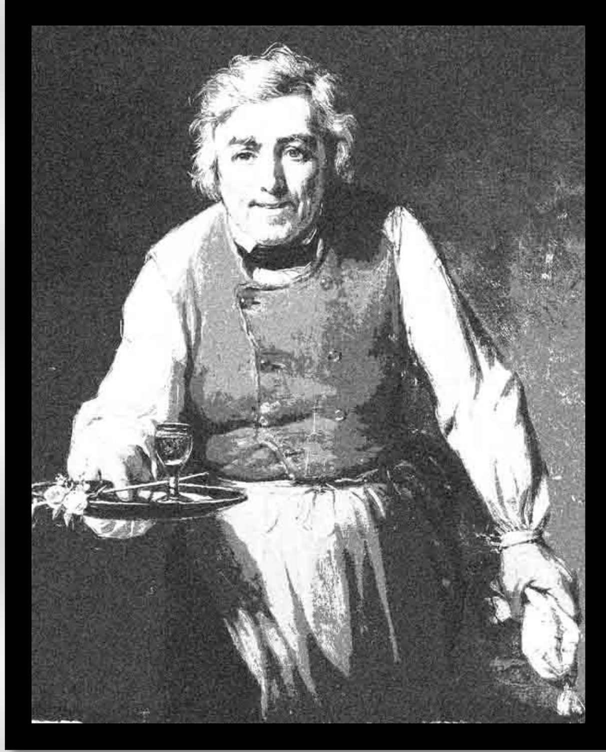
الجزء الأول

تُليمة

الذي هُزم !

السماء صافيّة هذا الصباح ، لا سحابَ يُلبّدها كالأصباغ على وجه الغانيّة ، الخامات كما هي ، السماء كما رآها آدم أولَّ مَرة ، والنجوم في الإسطبل تنتظر نوبتها ، والسحاب ما بين حرارة الشمس وسطح المحُيطات في طَور التكوين ، الطيور أقرّت بروعة المشهد وقررت ألّا تتدخّل ، سكنت أعشاشها تتابع صفاء السماء هذا اليوم ، بينما المَشهد على الأرض لم يكن بهذه الروعة !

رَغم هذا الغُلام الذي يُحلق بعيداً بجناحيه المصنوعين من ريش البط ، وتلك الفتاة الفاتنة الأشبه بالحوريّات ، وتلك الفاكهة المُتضخمة على ضفاف النهر ، لم نكن في الجنة ، حتى هذا الكهل لم يكن ملاكاً حارساً بل كان مُجرَد **receptionist** في موتيل فقير ، يسير الهوينى مُتكئاً على عصاه ، يبتاع ما يحتاجه الموتيل من فاكهة يعلم جيداً أن بها من السِمّ ما يجعلها على ضخامتها ، الطبيعة لم تُرهق ساعديها منذ زمن طويل ،والمذاق الطبيعي للفاكهة يقرأون عنه في كتب التاريخ أو يحلم به مَن يمرّون بالمراحل الأخيرة للشيخوخة .



(أليساندرو)

أعود إلى الموتيل لأجد في ساحته الخلفيّة السيّد "ألان رامسّي" يُطالع كتاباً فخماً يحمل عنواناً فخماً بدوره ، السيّد "ألان" لا يتحدث كثيراً،لكنه حين يتحدث يذكر لنا الكثير من الكتب التي يستند إليها في حُججه التي لم تكن لتلقى القبول

دون هذه القائمة الطويلة ، وذات مرة جاءنا قِس
ليبيت ليلة قبل أن يمضي في سفرٍ طويل إلى
أفريقيا لينشر تعاليم المسيح بها ، كان بحوذته
الكثير من المال ،هنا سال لُعاب السيّد"ألان" و
بعد ساعةِ كان الاثنان صديقين !

تحدث القس عن أديان الشرق مُتهمّاً إياها
بالتطرّف و أنها تدعو لنشر الذُعر بين مسيحيي
الغرب ، هنا أضاف السيّد "ألان" : نعم، بل وأزيد
على ما تقول أنهم يبيحون قتلنا ويُخصصون
أموالاً لهذا! ،لا أعرف لماذا تصمت الكنيسة على
أفعالهم! ،هزّ القس رأسه أسفاً وقال : أنت تعرف
أن الشرق يغوص في الجهل حتى كاحليّه
،والحكومات هناك ترضخ لأولئك المتطرفين ،
ليست لنا فُرصة لننشر تعاليم المسيح ،نحن
نتسلل إلى أفريقيا إن أردت توصيفاً دقيقاً !

ثبّت السيد"ألان" عينيه و قال : لكن الأموال
تُيسر كُلّ شيء كما أعلم ! ، لم يُدرك القس مغزى
مقالة السيد "ألان" فردّ بحُسن نيّة : الأموال
مُجرَد رماد لا يملأ قلب أحد بالتقوى !

رحل القس و بقى السيد "ألان" في الساحة الخلفيّة يُطالع كُتباً فخمة ولا يُغادر كُرسيه إلا ليتناول غداءه في غُرفته أو لينام ليلاً ، وبعد أيام رأيته يكتب بنهمٍ ، لم نعرف عنه ولعاً بالكتابة ، كان شديد التركيز فيما يكتب كأنما يسطر كلمات وصيته ،وبينما أدعوه ليتناول الغداء ،تطايرت بضعة أوراق بفعل الريح ، استقرّ بعضها عند قدمي ، لستُ سريع البديهة لكني لمحت كلمات عن "شراء الجنة"و"رأسمال الدين" ،إنها ترّهات المُثقفين و يبدو أنه يروي ما كان بينه وبين القس.

مرّ أسبوعٌ كامل والسيّد ألان مُنكبّ على أوراقه ،بينما حلّ ضيف جديد وزوجته ،زوجته ترتدي حجاباً وهو من غير المألوف هنا،الراهبات يرتديّن مثله ،لكنهن راهبات على أيّة حال ، يمكن أن تراهنّ في الكنائس خلسةً ، وربما إذا نطقت إحداهُنّ كان صوتاً أَجشّ ،ربما تُخفي رجلاً تحت جلدها !

زوجها رجل لطيف ، أسمر البشرة ، هُم من الشرق فيما يبدو ، في الغالب نرى هؤلاء يعملون

إمّا خَدَماً أو سائقي تاكسي ، ونرى بِعضهم طُلاباً للعلم مُنطويّ السريرة أو مفضوحيِ السيرة مع فتيَات الليل ، لكن أن نرى أحدهم مُتزوجاً ويأتي ليسكن فندقاً ليس رخيصاً ، يبدو أن الغرائب ستكسر الملل والرتابة !

رَغم انشغال السيّد "ألان" إلّا أنه لم يترك الغريبين في حالِهما ، أوّل احتكاك كان مع زوجة الغريب ، هبطتَ الدرج صباحاً وسألتني عن مكانٍ تبتاع منه بعض الخُضّر ، هنا نهض السيّد "ألان" وقال مُلاطفاً : أنا أعرف المدينة جيداً و يُمكنني أن أكون دليلك في أوّل أيامك هنا ! ، لم تلتفت وردّت جافةً : شُكراً لك أيها السيّد المُحترَم ! ، لم تكن العبارة الصارمة كافيّة للسيّد "ألان" ؛فأصرّ مُلحّاً أن يصحبها ، مما دفعها – وأراها مُحقّة – أن تصرخ في وجهه : نحن لا نُصاحب رجالاً غُرباء ! ، وتركته مصدوماً وهرولت خارج الفندق .

توقعت كارثة ، زوجها شرقيَ لابد أنه حارّ الدماء وربما يستلّ خنجره ويطعن السيد"ألان" في مُقلة عينه ، لذا ذهبت للسيّد"ألان" أرجوه أن يعتذر

للسيدة حتى لا يشتعل الموقف أكثر ، لكنه أصرّ أنها امرأة مُتخلفّة بدائيّة ، وأنه سيسعى ليلقنها درساً في التحضرّ ، تركته وانهمكت في تنظيف الغُرف العلويّة ، متربصاً بأذنيّ انتظاراً لمُشادات تنتهي بصراخٍ أخير من السيد "ألان" .

عادت السيدة من تسوقّها ونظرت شذراً للسيّد "ألان"، الذي – على غير عادته – ترك الساحة الخلفيّة وجلس بمقربةِ من الباب ، وما إن رآها حتى قال بصوتِ عالِ – موجهاً لي الحديث - : تُرى يا أليساندرو كَم من قذارةِ ستخرج من الغرفة العلويّة قُرب الدرّج ؟ - يَقصد غرفتها - ، ألا تشترط على مَن يودّ السكن هنا أن يكون مُتعلماً و يعرف على الأقل إلامَ وصل داروين في نظرية التطور ؟!

هنا وقفت السيدة واحتشدت الدموع في عينيها وكادت أن تصرخ في وجهه لولا أن كتمتها بيدها وصعدت بسرعة ، لم ألتفت للسيّد "ألان" ،لن أكون جُزءاً من اللَعبة وهذا ما قُلته وأنا أتجه للخارج لأشتري بعض الخُضرّ .

عرفت من السيّد المُسنّ "سميث" عمّا حدث في غيابي ، لقد هبط السيّد الشرقيَ مُندفعاً ، وارتعدّ السيد"ألان" في مقعده ،لكن السيّد الشرقي صرخ في وجهه قائلاً : أيها الطُحيلب إيّاك و أن تقترب من زوجتي ، لسنا بضاعةً مُسجاةً لتبتاعها أيها السيّد المُتحضّر ! ، ثم انصرف خارج الفندق ، وظلّ السيد "ألان" مكانه مُتسمراً لا يُحرّك ساكناً ، وكان من هول الصدمة عليه – أن يسبّه أحد علانيّةً دون توريّة – أن اندفعت الدماء في وجهه وظلّ يصرخ فِينا نحن مَن هرعنا على صراخ السيّد الشرقي .

السيّد"ألان" كان عنيداً ،والرجل الشرقيَ حاد الطِباع ، والزوجة فيما يبدو لن تحتمل أكثر ، وقد نسَى السيّد "ألان" ما كان مُنكبّاً على كتابته حول حواره مع القِس و حقيبة الأموال ، ولم يشغله همّ سوى ..

هذا ما سيرويه السيّد الشرقيَ بنفسه ..



(تُليمّة)

أنت تعرف جيداً الأسباب التي قد تدفع شاباً مثلي للسفر إلى بلاد غريبة وعادات أغرب ، أعمل كطبيبٍ في عيادة صغيرة في حيّ فقير ، العيادة عبارة عن شقة في عقارٍ مُتهالك تنقسم لغرفات ؛غرفة لأمراض الباطنة ، وأخرَى للقلب ، والأخيرة - تخصنّي - للعظام ، أغلب الحالات "كسر ساق بسبب مباراة كرة قدم في حارة الزيت" أو "النقرس الذي تكتشف أنه التهاب في الأعصاب الطرفيّة لا أكثر" ، الجميع يذهب أولاً لطبيب

الباطنة الذي يعمل كسكرتير خاص لبقيّة الأطباء ، هو يوزّع الجميع على المُتخصصين ، كاد يصرخ ذات يوم : لماذا تأتينِي امرأة تُعاني من خشونة الرُكبة ؟! ، لكن ظلّ مَن يأتي لا يدفع شيئاً تقريباً ، يبدأ الشهر و في قبضتك بضعة مئات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وينتهي و أنت مديون ببضعة مئات تتجاوز أصابع اليدين و القدمين معاً !

تزوجت لأن لا شيء فلح في مقاومة فكرة الانتحار ،أعيش وحدي بلا طموحات ، أقصى طموحاتي الواقعيّة أن أعمل في عيادة أكبر ، أمّا طموحاتي الخياليّة فحدّث ولا حرج ، أنا مُدير مُستشفى على الأقل ! ، لكني تزوجت كيّ يُخلَق هدفٌ ما أتعلّق به ، "زوجتك ستضيع إن مُت !" أو "أبناؤك سيتيهون في الطُرقات عرايا بدونك!" ، كلها دوافع (سـ)ـتجعلك لا تفكر في الانتحار مُجدداً !

كانت "تاليّا" جميلة و الأجمل "فقيرة" ، الفقيرات لم يعشن طموحات "الفيلا و السيارة " ، أقصى

طموحهن "لُقمة هنيّة" حتى لو كانت مُتربّة أو مُسممة حتّى ، لكنها مُتعلمة ، تخرجت في مَدرسّة الآداب ، و قارئة جيدة للآداب المحليّة و العالميّة ، تحب "نيسن" وتهوى "إدريس" وتتلعثم من كثرة الانبهار حينما تتحدث عن "طاغور" ، وتميل قليلاً لديكنز رغم أسلوبه المُمل ، لكنها أوربا التي لابد أن تكون جزءاً من ثقافتك حتى لو كانت مُتخلفّة !

في ظروف غريبة ومُتشابكة سافرنا لبلدٍ أوربيّ ،لأعمل في عيادة لأحد هؤلاء الأقارب الَذين يبرزون فجأة من اللاوعي ، ولـ"تاليّا" وظيفة في مكتبةٍ مرموقة بتوصيّة من هذا القريب الغامض المشهور فيما يبدو في هذه الأرجاء من العالم ، كانت "تاليا" متوجسة ، ما تعرفه عن الغرب هو "التحرش المُقنن"، و ما تعرفه عن هذه البلدة التي لا تدين بدين سمويّ جعلها ترتاب وتفكر بجديّة في كيف تدافع عن نفسها إذا تعرضت للاغتصاب ! ، رغم أني و"تاليا" لا ندين بشيء على الإطلاق ، من البقعة التي أتينا منها لا توجد أديان ، فقط أعراف وتقاليد وأخلاق تحدد ملامح

العلاقات بين البشر وبعضهم ، لكني طمئنتها على أيّة حال بأن شقتنا ستكون جاهزة لاستقبالنا قريباً ، فقط هي فترة وجيزة سنقضيها في فندق سأحرص ألّا يكون رخيصاً يلجأ إليه المُتسكعون !

وصلنا إلى الفُندُق ، لمحت على شفتيها ابتسامة خفيّة ، إنها تتذكر ليلتنا الأولى في بلدنا ،خلال حفل الزفاف همست لها : الصداع يكاد يفتك برأسي ، ما رأيك أن نتسلل لنقضي ليلتنا كما نريد ؟ ،وافقت و هربنا من الجموع الصاخبة التي حضرت الزفاف ، وشاهدنا سويّاً فيلماً تُركيّاً في إحدى دور العرض ، ثم انتصف الليل ، فقلت لها : في الصباح سيهجم الجميع على شقتنا ، لنمضْ الليلة في فندقٍ بعيداً عنهم ! ، وافقت وكانت ليلتنا الأولى في فندق رخيص - هو ما وجدناه مُتاحاً - وتكفلّ البقّ بألا نخلد إلى النوم ، وسهرنا ليلتنا نتذكر أيام الطفولة والدراسة ، وما سنفعله في أيامنا القادمة سويّاً.

اليوم نقف أمام فندق أوربيّ ،كهل أرستقراطيَ يستقبلنا في حفاوة باردة ، الاستقبال القائم على

مشاعر "أنت حفنة نقود على قدمين" ، لاحظت أن الفندق صغير ، طابقان لا أكثر ،الطابق به أربعة غُرَف ، و هناك ساحة خلفيّة -اكتشفتها فيما بعد- لِمَن يريد التمتع بأشعة الشمس ،الفندق بسيط في تصميمه ؛فالدهان أزرق و الزخارف تحفّ الأركان ، المقاعد خشبيّة من البوص مُريحة ، والإضاءة خافتة فلا تعلم بأيّ وقت من اليوم أنت إلّا إذا خرجت للساحة الخلَفيّة.

حكى لك أليساندرو الشجار الذي حدث بين "تاليّا" و السيّد"ألان" ، الحقيقة أن تاليا اندفعت لغرفتنا باكيّة ، لم نكمل ساعةً هنا وتبكي ! ، دعك من إحساسها بالغُربة ومخاوفها من التحرش الغربيّ ، استشطت غضباً وكدت أمزق الرجل إرباّاً ،لولا الشيب الذي خطّ لحيته ، أعرف أن الغربيين مزاجيّون جداً ، و ليس عجيباً أن يولع عجوز يحتضر بفتاة في العشرين من عُمرها ، لكن ملامح "ألان" لا توحَي بهذه الصبيانيّة ، الرجل فعل ما فعل لأسباب أعمق !

ليس في بلدنا دين ، والحقيقة أن كلمة "دين" لم نقرأها إلا في الأدب ، لكن ما أعرفه بحكم دراستي للتحليل النفسيّ ، أن ما يربط الرجل بالمرأة هو "الغريزة" ، في الغرب قديماً ما قبل الانحلال كانوا يطلقون أسماءاً أخرى مثل "صداقة" ، أنت تحب امرأة ولكنك لا تنام معها على فراشٍ واحد ، ثم تطوّر الأمر إلى أنك تحبها ووقت ضيقها أو حزنك تنام معها من باب المُساندة المعنويّة ، لكن لم تفلح أيّة أسماء أن تمحو المعنى القائم "ما يربط بين الرجل و المرأة هو الغريزة" .

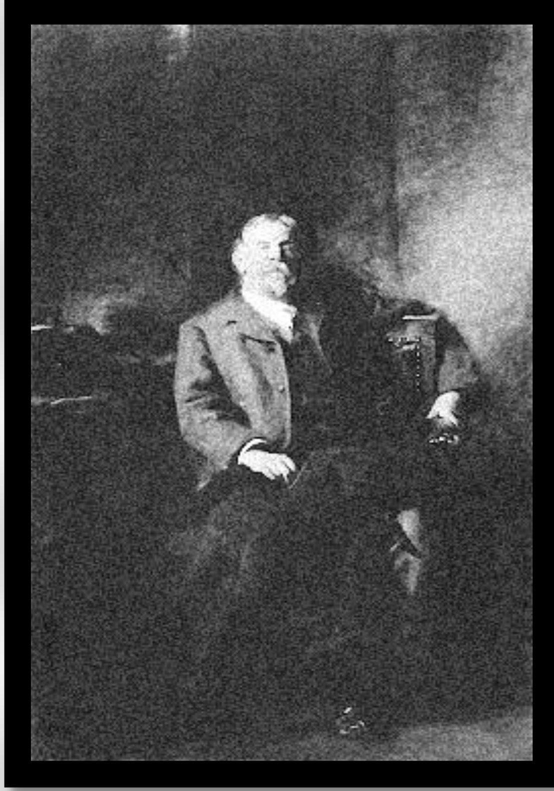
تم الاحتيال على هذا المعنى بوسيلةٍ أخرى ماكرة ، الخطابات المُتبادلة ، الرجل لا يرىَ المرأة ولا يقابلها وجهاً لوجه ، لكنه يعرف عنها الكثير ، الكلمات تنقل بين السطور رائحة عطرها الفوّاح ، وتنقل في معانيها فحولته وصرامته ، هذا كفيل أن يفكر فيها كمصدر للمتعّة ! ، والحقيقة أن الخطابات لا تختلف كثيراً ، فقط الفراش تحوّل لرجل بريدِ !

عندما احتاجت المرأة في الغرب أن تمتهن
الوظائف العامة وتتعلم مثل الرجال في مدارس
الطب والحقوق ، قام بعض الحُكماء الكلاسيكيون
بالمُعارضة الشرسة ، أن تستشعر الخطر عن بُعد ،
فتاة في فورّة أنوثتها تجتمع مع شباب في فورّة
رغبتهم ، نعم يتدارسون ويقرأون المراجع
العلميّة ،لساعاتِ طويلة،يتحدثون و يتسامرون
،لساعات طويلةَ،هنا صار من الطبيعي أن يكون
هناك فتاة تربطها علاقات(دراسيّة)مع شباب ،
ويتم تحصين هذه العلاقة الماكرة بميكانزم دفاع
يُدعى"الحفاظ على الذات"، إنها تدرس وتتعلم كيّ
تفيد بلدها وينضج عقلها ! ، حتى الكلاسيكيون
لم يصمدوا أمام هذه الحُجّة ، فلا أحد يمنع إنساناً
من تحصيل العلم إلا البدائيون .

هنا تحوّل الغرب – وسعى لتحويل ما حوله من
بُلدان – إلى بديهيات جديدة ؛مُخالطة المرأة
للرجال في الأماكن العامة ، ما ترتّب عليه انتشار
الزنا المُقنن ، تضحك الفتاة مع شباب ، ثم تعمل
معهم طويلاً ،فيما بعد تتكوّن رابطة عاطفيّة بلا
عنوان ، ثم يختار أحد الأطراف عنواناً مناسباً ، و

كلها عناوين متشابهة على أيّة حال ، فالصداقة مثل الزمالة مثل الحب ، والكلاسيكيون في كُتبهم كانوا إذا حذّروا من فاحشة ، حذّروا من مُقدماتها لا نتائجها فحسب ، يبدو أن السيّد "ألان" يريد أن يفرض علينا الزنا المُقنن !

لا أعلم تحديداً ما يريده السيّد "ألان" ، ربما كان تصرفاً غير لائق لا أكثر ، و ربما أراد أن يُحرِج "الشرقيّة المُتخلفّة" ، أو يُلقن درساً للشرقي المُتغطرس ! ، ليتحدث السيّد "ألان"!



(السيّد ألان)

أتؤمن أن الديناصورات هلكت بسبب النيازك ؟!
لقد هلكت لأنها لم تُنافق الطبيعة ، أعلنت أنها
الأقوى على الأرض و بوضوحٍ بالِغ ، الزرافّات
أخذت تتضرّع إلى الأشجار أن تَكون أقصر ،

التضرّع – أو قُل "النفاق"- كان في جيناتها ، و بقى ذوو الرِقاب الأَطوّل !

عندما جاء القس إلى الفُندُق ، بدأ اجتماعاً بالساكنين حدَثّهم فيه عن المسيح و كيف أنه سينقذهم من كل بلاء و هَمّ ، الجميع يُصدّق هذه الترّهات ، الأسطورة الغامضة التي ستأتي بعنفوانها من بين سطور الكُتب القديمة لتتجسّد و تُنقذ البشر المؤمنين ،السماء العاليّة عن هاماتنا بالتبعيّة هي الأقوى و الأحقّ بالاتباع ، و ما كان القِس إلّا زرافةً مُتضرعّة !

لاحظت حقيبة النقود معه لا تُفارقه ، يقول أنها تُيسرّ له المرور لبلدان أفريقيا بعيداً عن المُتطرفين ، لماذا لا يعترف أنه ينفق ببذخ على الجوعى هناك ليؤمنوا ،ويقبض هو راتبه و عمولته عن كُلِّ رأس تعتنق دعوته ؟! ، دعك من بَدَل السفر من الكنيسة ، ومن المُعاملة المَلكيّة التي يُعامل بها في أفريقيا .

يدعو الجميع للتضرّع إلى (السماء) ، بينما هو لا يؤمن بالسماء سوى أنها فُندق فاخر للسِحب لا

أكثر ، هو نفسه يتضرّع إلى حقيبة نقود ممتلئة عن آخرها ، لماذا لا يُصارح الجميع أن التضرّع العمليّ الأسلم هو "للرأسماليين" في بلدتنا ! ، كُن قريباً من النفوذ تنعم ،ماذا كسبت بقُربك من الكنائس في الآحاد ؟ لا شيء سوى لسعة حارقة من الشمعة تضعها أسفل صورة لا تعرف لمَن !

و لمّا رحل القس أخذت على عاتقي كتابة مُؤلَف عن الأساطيرِ و حقيقتها ،و دوّنت ما شرحته لك بالتفصيل ، الحقيقة أن الأديان أوجدها البشر كما أوجد الأدب الأمريكي سوبر مان؛الشخص الذي يفعل ما نتمناه و يحمل عبء كُلّ شيء نعجز عنه ، ليظلّ مُحصناً مُقدساً ، الاقتراب منه بالتشويه أو المُكاشفة تفضح الجميع وتُشعرهم بالعُريّ ، إنه الدثار الذي يبعث الدفء في الأوصال !

لكن ما قطعِ اعتكافي على الكتابة ظهور هذا الشاب شرقي الملامح و زوجته ، الشرق هو مَسكَن البشر العاطفيين الذين يحتاجون دوماً رموزاً يُقدسونها و يخلعون عليها من الصفات ما

يقومّها بفعل ما يعجزون عنه ، مثلاً يصنعون النار والجنة لأنهم عاجزون عن مُعاقبة الأقوى حينما يأثم ، وعاجزون أيضاً عن سدّ حاجات الضُعفاء ، ثم هم يحكمون أقوامهم بالخوف :لا تقربوا النساء فكلهُنّ حرام ، حتى يجعلوا من المرأة كياناً جامداً يكاد يجنّ من كتم مشاعره الفيّاضة ، لذا تجد أغلب نسائهّن مُتخلفّات ذهنيّاً ، إنْ خرجت من مطبخها لا تُحسن صُنعاً إلّا بحثاً عن رجلِ يخلق لها أمراً جديداً تُنفذه صاغرةً !

كانت زوجته ترتدي غطاء الرأس الذي يُميزهنّ عن المنفلتات أخلاقيّاً من النساء ، و لا أدري أيّ علّة تُقنع امرأة أن تخرج إلى الشارع قبيحة تُخفي كل أمارات جمالها ! ، اختلفت مدارس التحليل النفسيّ كثيراً و لكنها اتفقت أن الإنسان يحب نفسه ولا ينتقم منها إلّا في حالات خاصة من الاكتئاب ! ، إنها فيما يبدو تحب أن تبدو عفيفة ، أنت تعرف هذا النوع من البشر الذي يوهمك أنه مُستعد لمحاربة الشيطان – إنْ كان له وجود - ، بينما هو مع أول فرصة للفاحشة سيهرّول مُطيعاً مُتلذذاً !

إنها تتلفّت حولها وكأن الجميع يتربص بها ،إنها لا تعرف "الجميع" هنا ، الجميع هنا زراف يتضرّع ، سيِبدْون على سيماهم الاحترام لحجابها ،سترى الأخلاق على وجوههم باديّة ، بينما الأفكار السوداويّة تختبيء خلف حُجُب العقل ، في عقولهم يرونها "عاهرة صعبة المَنال" لا أكثر ، جميع النساء عاهرات ، و ما يخلق الفارق هو "الزمن" لمطارحتهم الفراش ليلاً !

حينما اقتربت منها كُنتُ سأكشف لها كَم هي بغيضة ، كنت مُتحضراً مُهذباً ، كما أني عجوز و لست شاباً في عنفواني ، لكنها فزعت ، فزعت كأنها رأت ديناصوراً صريحاً غير مُنافِق ، كانت تتوقع زرافةً لطيفةً تُثبت لها كم هيَ عفيفة لا تقبل التنازلات الأخلاقيّة ! ، صرخت كثيراً وولوّلت و كأني طالبتها أن نمضي للفراش ،في مُعتنقِها يجعلون من الرجال جميعهم وحوشاً لا يَجب الاقتراب منها ،حتى لو صبغوا وجوههم بالزينة ، حتى لو كانوا ودودين مُهذبين ، حتى لو طلبوا مُصاحبةً لا غراماً مُتبادلاً ، حتى لو طلبوا غراماً متبادلاً لا اغتصاباً ،بل وفي مُعتنقها يجعلون من

الغرام فاحشةً ، و لا أدري ألم تفكر هي في لحظة لماذا خُلقت أنثى !!

لقد غضبت كثيراً لأني طلبت منها أن اصطحبها للتسوّق لخبرتي بالمدينة ،رَغم أني لا أفارق الفندق إلّا لشِراء بعض السجائر وكيّ لا تتصلّب مفاصل قدميّ ،غضبت كيّ لا تترك لنفسها -الديناصور- العنان ، هي تريد أن تمشي مع جميع رجال البلدة ، هذا يُرضي غِرورها كأنثى ،يجعلها أكثر ثقةً في إتقان صُنع مَن خلقها ،إنها "مُتقنّة" بشهادة أهل الأرض والسماء !

غضبت لأن الغضب علاج ناجع كاسِح لأيّ أفكارٍ مُنحرفّة ،ربما غضبت كيّ تنال رضا زَوجها المُتطرّف ، المتطرفون يتمتعون بمهارة على الفراش فائقة ،هم عنيفون في كُل ممارسَات حياتهم،لذا لم يمنحهم خالقهم شعراً ناعماً ،لن يحتمل تمشيطهم ،والمرأة عندهم تحب العنف ،يؤكد لها أنها تحتمي بفحلٍ لا يجرؤ أحد على الصمود أمام ركلاته و لكماته ،إنها مُتلازمة العُنف والأمن

،الضحيّة التي تُجلد بسعادة ؛ لأنها تعلم أن وغداً زنيماً سيلقى نفس العقاب إن اقترب منها !

صرخ زوجها في وجهي كما روى لك أليساندرو ، لم أحرّك ساكناً ، أنت لن تُضاهي ثوراً في ذروة هياجه ،وقد نلت ما أردت على أيّة حال ، غضب هو و غضبت هي ، ولو كان مُعتنقهم سليماً لطرحوه بهدوء ،هذا ما نعرفه عن المُتحضّرين !

وكيّ لا أبدو ضعيفاً ،صرخت فيمَن شهد الواقعة بعدما تأكدت أن الشرقي قد رحل بعيداً ، لم أتوّعد خلال صُراخي بأن ألقنّه درساً ،الرجل الحكيم لا يُلقي بنفسه إلى التهلُكة ، كما أنك كما تعلم .. الديناصور قد انقرض و بقي الزراف وحده !



(تاليّا)

لا أعرف ما دفعني حينها أن أُجيب بـ"نعم" على سؤال "هل توافقين على الزواج منه ؟" ،الحديثُ عن الدوافع يحتاج قبلها أن أحب شخصاً آخر عجز عن الزواج ، أوافق على آخر غيره لمُجرَد أنه ينتقم من الفقر بثرائه ، يدعم تمرداً ليس طرفاً فيه ، لكني لم أُحب أحداً من قبل ،أشعر بشيء

من الارتياح لبعض هؤلاء الودودين ، تجدهم في مدرسة الآداب عند حديقة شكسبير يغزلون الشعر الفُكاهيَ ،فتُشاركهم وتتبادل معهم الانتقام من الكآبة،ثم تشعر أن أحدهم دون غيره أكثر طيبةً واحتراماً وتهذيباً ، تُعجّب به كإنسان يعيش على سطح هذا الكوكب لا أكثر،مشاهد الرومانسيّة المصبوغة باللون الأرجوانيّ المُحبب لم أكن طرفاً فيها،إنهم أناسٌ يشاطروننا الأكسجين ؛فلا نبخل عليهم ببضعة كلمات نتبادلها ،كان هذا هو مُعتنَقي .

لا أعرف إلى الآن ما الذي دفعني للزواج من "تُليمّة" ، الطبيب في زمننا الآن لم يعد بذات الأبّهة التاريخيّة ، فقير آخر يتسوّل من العيادات لا المقاهي ، الخارطة الاقتصاديّة انقلبت على أعقابها ،في كُتب التاريخ قرأنا عن مصدر وقودِ يُدعى "البترول" كان يجعل الناس أغنياء بحقَ ، وأن الغرب نفسه كان يلهث ورائهم أو يتآمر عليهم أو يستسلم لهم ، كانوا مَحطّ الاهتمام الأول والأخير في العالم ، لكن بعدما نفد وسقط العالم بشرقه وغربه في الفقر،ومركز الاقتصاد صار

على سطح القمر حيث هؤلاء مَن يعتبرونه منجماً للمعادن النفيسة ، لم تعد هناك خارطة اقتصاديّة أكثر وضوحاً من الواقعة الآن ؛أثرياء من المريخ وفُقراء من الأرض !

حتى الأدب لم يسلم ،الخيال العلمي سُلب أهم ميزاته ؛صار يتحقق ! ،حتى أفلام الرُعب صارت طفوليّة لما يحدث ، في الغرب لا ينتظرون الزومبي يهرولّون ورائهم ،في كل رجا ستجد مُغتصباً رعديداً ، تكونين حيّة ثم بعدما يؤدي دورهِ كوغد تتحولّين إلى زومبي لا ترمين لشيء إلّا الانتقام ،أوَ لو كنُتي أقل دراميّة ستُمارسين حياتَك دون أن تمارسكِ الحياة !

أقرأ عن الغرب من الجرائد التي لم تنقطع لحُسن الحظ أو لسوئه ، جميع الأخبار سيئة أو سيئة جداً ،هناك طفلٌ يولد كل ساعة وحالة اغتصاب كُلَّ دقيقة ، حالات الولادة هي في الأغلب حالات اغتصاب ناجحة ، المسيحيّة هناك صارت مزاراً سياحيّاً ،لا تندرج تحت السياحة المحليّة على الإطلاق ، في الآحاد الجميع يذهب للسينما

ليشاهدوا أفلاماً حماسيّة عن مُعالجة الاغتصاب ،ثم يخرجون من دور العرض ليتم اغتصابهم من قبيل " الفلاش باك" ، هناك بضعة قساوسة يرتادون بعض الكنائس المهجورة ، هناك جريدة صفراء تتحدث عن تمويل مجهول المصدر لهؤلاء القساوسة يدعمهم للسفر إلى أفريقيا ليبشروا بالمسيح ، هناك مقالات أخرى أكثر تآمريّة عن رغبة أوربا في اكتساح أفريقيا ،نعم أفريقيا تم اغتصابها من البترول في العقود السابقة وصارت مُنهكة ،لكن الجميع يعلم أن تربتها خصبة ، ويبدو أن التاريخ سيعيد نفسه من البداية الأولى ؛الإنسان الزراعي !

لا أعلم ما دور "الدين" -تلك الكلمة المُبهمة- في احتلال قارّة بأكملها ، في الشرق -حيث أعيش في ركن مُقفَر منه- لا أحد يعرف شيئاً عن القوى الغامضة التي كان يعبدها مَن سبقنا ، هناك أساطير ترويها الجدّات قبل النوم عن دين الإسلام الذي سيطر على الشرق ،كانت تحكي عن دُعاةِ للفضيلة على مذاهب الكلاسكيين في الغرب ، تنظَيم العلاقات بين البشر و بعضهم ، وكان

هناك ضوابط كثيرة لما يُسمّى"الاختلاط بين الرجال والنساء"،حتى أن بعض مذاهبهم قالت "البديهي ألا يوجد اختلاط ،ووجوده للضروريات القُصوى" ،نعم هذا ما تحكيه الجدّات لأنه يثير الضحك ،هذا الدين قد انتهى من الشرق تماماً ،لم يعد له أيّ أثر سوى بعض الأخلاق التي ترطب فتيل القنبلة كيّ لا تنفجر ،يُقال أن أسباب انتهائه أن مُعتنقيه أنفسهم لم يعودوا يؤمنون بضوابطه ورأوها قيوداً مُتطرفّة، والبعض الآخر يقول أن دُعاته مُتطرفون ،ولكن في زمننا هذا نعلم أن الغرب كان هو الداعِم لإنهاء هذا الدين ،تقول الجرائد الصفراء التي قد تكون صادقة في بعض الأحيان ، أن الفكرة بدأت بالإنسان الذي يؤمن بالقيّم العُليا ويترك تنفيذها لخياله وأسلوبه ،أيّ أن تؤمن المرأة مثلاً بأن الزنا ضد الإنسانيّة لكنها تنفذ هذا الرفض بسلوكيات دافعةِ له !

بعدما صار مُعتنقو الإسلام مواطنين عالميين ،كان من السهل ضرب تشريعاتهم في مَقتل ، تشريعاتهم كانت تنظم "مُقدمات" الفاحشة ، هذا لم يُعجب الغرب كثيراً ،وتذمر منه المسلمون

أنفسهم ، هكذا انتهى الإسلام عهدُه وبدأ الناس يعتنقون (شيئاً) جديداً هو "الأنّا" !

لهذا كان خوفِي من السفر إلى الغرب مع "تُليمّة" له دوافعه ، رَغم أن زواجي به لم تكن له دوافع ، لكن حينما لا تملك طموحاً أنت لا تملك خُططاً أو تصورات للمُستقبَل، ما الفارق أن أعيش مع أبي العجوز المُسنّ وأن أتزوج فقيراً سيموت مُكتئباً بعد سنوات قليلة ؟ على الأقل الفقير سيتذكر أنّي زوجته ، أمّا أبي فهو مُصرّ أني زوجة ابنه -الذي لم يُنجبه- التي تريد قتله ، أنت تعرف طبيعة الإنسان المظلوم الذي يُفضّل أن يُظلم من وقائع لا خيالات !

حكى لك "تُليمّة" ليلتنا الأولى في الفندق ، أجزم أنه لم يرو لك الكثير عن هذه الليلة ، لن يروي عريس عن مُشاجرته الأولى ليلة زفافه ! ، كُنّا – استسلاماً لعضّات البقّ – نحكي عن طفولتنا ودراستنا ،وحينما سمع منّي عن علاقتي بزملاء الدراسة استشاط غضباً ،رغم أنها علاقات لا تتعدّى تبادل النكات الشعريّة ،"تُليمّة" يبدو من

فلول المسلمين ، احمرّ وجهه وصاح "أيّ امرأة تقبل أن تكون بضاعةً مُسجاةً ! أهينّة أنتِ لهذه الدرجة !"،ظننت لوهلة أنه يتحدث إلى امَرأة فرطّت في شرفّها ! ، ثم بادلته الصياح بصراخٍ أقوى "لو كنت تريد من هذه المرأة ألا تعرف شيئاً عن العالم وتكون "شيئاً" مُسجى،فأيّ إهانة توجهها لي !"،الحقيقة أني صُدمت من منطقه ،خاصةً أنها ليلتنا الأولى ،أنتظر رومانسيّةً أو على الأقل نوماً هانئاً ،لكن شجاراً حول تاريخٍ ماضٍ لن يتكرر ، ولم يكن تاريخاً أسوّد أصلاً !

لم يدمْ الشجار طويلاً ، "تُليمّة" لم يكن مُحاوِراً جيداً وأنا لم أكن مُجادِلّةً صَبورّةً ،اعتذرت له أنّي كنتُ مُغفلّةً في الماضيَ ،وأتمنى ألا تستمر غفلتي أكثر ،ارتضى مني هذه العبارات من باب الانتصار الجُزئيّ ،وفي صباح اليوم التالي كان عابساً وحينما حاولت مُلاطفته باغتني بسؤالٍ :هل أحببت أحدَهم ؟ ،قُلتُ باسمةً :لم أعرف شيئاً عن اَلحُبِ إلى الآن ،دعني أعرفه منّك !

"تُليمّة" لم يكن مُتطرفاً كما كان انطباعي عنه
،بعد ساعة أخذ يُلقي النكات ويحكي لي عن
عيادته ومَا يُلاقيه من مَرَضى، ثم قال لي :تعلمين
أن الضوابط في العالَم إلى زوال ،وأنا خائف على
ذُريتنا وأريدك مُعينَةً لي على الحفاظ عليهم ،
هادئةً قُلتُ: لَا تقلق ، العالم سينتهي وذُريتنا لم
ترتكب الفاحشة ! ،ابتسم وقال :لينته العالم إذن !

عندما وطأت قدمي أرض الغرب ،استرجعت كلَّ
ما ذكرته لك عن توجسّي ،وحينما اقتحمني
السيّد"ألان" شعرت أن عليّ أن أُنذر الجميعَ هُنا
أنّي لستُ لقمةً سائغة كبقيّة الفتيّات هنا، نعم أنا
لا أمانع المُزاح اللائق ،لكن في الغرب المُزاح يُعدُّ
ضوءاً أخضر للفاحشة ،السيّد"ألان" عجوز وربما لا
يعني مُغازلتي،لكن عندما غادرت الفُندق بعدما
صحتُّ فيه ،أخذت أسير في شوارع المدينة أفكر
كيف ستكون الحياة هنا ،وكيف سأتعامل في
وظيفتي الأولى ، أتمنى أن تكون المكتبات العامّة
هُنا حرماً للصمت والعُزلة وليست وكراً للفاحشة
!

خلال تسوقيَ في أحد المتاجِر ،لاحظتُ نظرات
الناس المُرتابة لحجابي ،الحقيقة أن جدتيّ كانت
ترتديه ،ذكرت لي يوماً أنه كان فريضةً ،لكني
ارتديته لاعتباراتِ أخرى ،فقد حدث ذات يومِ في
مدرسة الآداب حَينما كنتُ طالبةً ،أنِ كان
أحدهم ممن ينشدون الشعر الفُكاهيَ يصف
النساء أنهنّ جميعاً نمطاً واحداً ،وعارضته حينها
أن الأخلاق والقيّم العُليّا تتمثّل فيُ هيئة وكيان
ملموس،وأنه -بجانب التعامل- يُمكنك أَن تعرف
أيهنّ تدّعي الفضيلة و أيهنّ صادقة،ذلك أن
الفضيلة عامة شاملة،فمثلاً لم أرتض لنفسي يوماً
أن أرتدي البكيني على شاطيء البحر ،نعم
الطحالب تضطرك أن تسبح داخل دولابِ مُغلَق
،لكن أشعر أنها دعوة صريحة مني للفاحشة
،وكأن لسان حال البكيني"هلمّوا يا فتيّة ،لقمة
سائغة هاهُنا في الانتظار !" ،لذا فقد ارتديّت
الحجاب رَغم أنه شبه مُنقرِض ،اللهمّ بضعة
عجائز يُخفّين به صلعتهنّ ،الحجاب مثال أن
(فضح) الجمال عبارة عن دعوة للفاَحشة

،والتضحيّة هي المرحلّة الأصدق في اعتناق الفضائل .

لم أبال بالنظرِات المُرتابة في المتجر ،اعتدتها في وطني الشرقي كثيراً ، لكني هنا لستُ في وطني ،الغُربة شعور مؤلم ،لقد اعتدتِ كلمات مُعينة في السُخريّة من حجابي ،اعتدت السِباب الشعبي لمنظريّ المُتخلّف في ظنّهم، هنا النظرات أجنبيّة، والهمسات لئيمة بشكلِ مؤلِم ،أين أنت يا "تُليمّة" يا مَن تبقّى مِن وطني !

عُدتُ إلى الفُندق مُسرعةً ،كأني أهروّل إلى وطني الدافيء لطيف السِباب أليف الاستهزاء،كان السيّد "ألان"مُتربصاً ،حينما وصفنّي بالقاذورات،لم أحرّ جواباً ،هل أصرخ في وجهه مُجدداً أم أتجاهله فأكيدُ أعصابه ،أسقَط في يديّ !،أنا ضعيفة في هذه الأجواء ،أنا سوبر مان في هواء مُلوّث بالكريبتون ، أنا الرجل الخفي وسط غُبار كثيف،فجأة تحوّل الفندق اللطيف البسيط إلى غابة مُوحشة ،ما أتى بك إلى هُنا يا ذات الرداء الأحمر ! ،الذئاب هُم مَن غرسوا الأشجار و شرّعوا

القوانين ،كُلّ شيء من صُنع الذئاب هُنا ،وحدكِ هُنا ،الجدّة ذئب ..الأب ذئب.. زوجكِ ذئب !

أصعدُ إلى غُرفتي أبكي في حُرقة ،يستقبلني تُليمّة فزعاً مُتسائلاً ، أصرخ :أريد أن أعود إلى وطني حالاً ! ،أحكي لي من بين الدموع ما جرى ،يفعل ما ذكره أليساندرو ،ثم يعود لغُرفتنا يُطمئنني أن شقتنا ستكون جاهزة خلال أيامٍ قليلة،سيتصل بقريبه المجهول لنبيت عنده الأيام المُتبقيّة .

نرحل عن الفُندُق والأسى يعلو وجه أليساندرو الطيّب مُعتذراً عمّا جرى ،السيّد"ألان" شامتاً يودعنا بعينيه الناريتيّن،نعم لقد انتصر ،قواعد اللعبة صُممت لأجله ، دينٌ بأكمله لم يصمد ،لا تنتظر مني بطولةً ! ، سنرحل إلى أرضٍ أخرى يا "تُليمّة"،مبادؤك خاسرة هنا،مبادئي مُنهزمةٌ هُنا ،لقد توارت الفضيلة و ارتادت الحانات و ثملت،ثملت كثيراً حتى صار وجهها كوجِه مُغتصبٍ جامح أو شَريد أشعث ، صارت كريهةً للجميع ،رائحتها مُنفرّةَ،كلامها مُقزز،لنثمل يا "تُليمّة" .. لنكن ذئاباً يا "تُليمّة" !

"تُليمّة" كان مُحطماً ،لم يتوقع هذا الاستقبال في أسوأ كوابيسه،قال لي :تخيلتُ أن يتركونا و شأننا ،فضيلتهم أن نترك الجميع يرتكب الفاحشة ،فلماذا لا يتركونا نفعل الفضيلة ! ،لكنه استجمع قواه ،أو إنْ شئت الدقة تذكّر ما ينتظرنا في الوطن من فقرٍ ومقابر جماعيّة تُسمّى "مدينة"،قال لي :لنصبر يا "تاليّا" ..لنصبِر،لا ينتظرنا في الوطن الجنّة،هدّأ من روعّي قليلاً ،نعم هو مُحق فالأوطان جحيم واحد،و(سأعتاد) على سخافتهم ،ربما أبتكر الألذع منها يوماً !

المُبررات ابتكارٌ رائع للنفس البشريّة ،السارِق يسرق كيّ لا يموت جوعاً ،نعم هو صاحب مطعم ويُعاني السمنة،لكن المُبرر قائم "كيّ لا يموت جوعاً" ،الجميع هُنا يعرف من ملامح وجهي أني شرقيّة،يعرفون أن على شِقف موائد الماضي تبقّى فضيلة أو أكثر،يسخرونَ منها لكنهم لا يُجبرونني على التخلّي عنها ،نعم يصفونني بالتخلّف وهذا يُعدّ تحريضاً و سبّاً ،لكن مَن يُبالي ! ،نحن نجد قوت يومنا و ما يكفي ،"تُليمة"سعيد بعمله هُنا،يجني الكثير من الأموال ،الأجواء باردة هنا

وآلام العظام مُتلازمة جينيّة ،وعملي هاديء في المكتبة ،أتابع فقط مَن يرتادها وهُم قلّة على أيّة حال ، ومن المنبوذين هنا ،أن تقرأ وتُضيّع وقتك بين سطور الكتب و أنت في ريعان شبابك سخف وتفاهة ،لذا ما إن يرتادها هؤلاء خلسةً يأكلون الكُتب أكلاً ،ويجعلون عملي رائعاً خالياً من المتاعِب !

المُبررات رائعة ،تجعل الحياة أفضل ،تخيّل لو كان السارِق في كل سرقة يغتاله ضميره اغتيالاً كاسحاً ! ،لابد من مُبررٍ يُرضي هذا الضمير المُتذمر ، لذا خلعت الحجاب ولم يُؤنبني هذا الضميَر لوهلة ، العُرف هاهُنا لا يقتضي حجاباً ليقتنع الجميع أنّي شرقيّة أتمسك بالفضيلة، ولا أحد يهتم بالفضيلة كيّ أثبت له أنها عملٌ شامل يحتاج تضحيّةً ، دعك من بعض المُضايقات العابرة من زُملاء العمل ،وأن الحجاب كان عائقاً ،حتى "تُليمّة"لم يغضب حينما ركبت سيارة زميل لي إلى البيت لأني كنتُ مُنهكة،بل دعاه إلى العشاء وشكره كثيراً،وحينما اتصل زميلي عدة مرات لم يُبد اعتراضاً ،"تُليمّة" لم يعد خائفاً على مُستقبَل ذُريتنا ،حتى أن ابنتنا

"صوفي" استأذنته أن يبيت صديقها في غُرفتها لأن أباه طرده من البيت ؛فرحبّ وأخذ يتحدث مع صديقها ليُهدّيء من روعه ،حتى خلال الليل و "تُليمّة" مُنكبّ على أوراقه ،يسمع أصواتاً من غُرفة ابنته و لا يُبالي ،حتى وبعد عدة شهور تُخبره أنها حامل لا يُبالي ،لا أحد يُبالي بتلك التُرّهات ،هناك مُبررات كثيرة حتى أن الضمير لم يُرهق نفسه ليسمعها ،هو راضٍ تماماً،لا أحد يُبالي ،وقد صار "تُليمّة" أحداً آخر لا أكثر .

أمّا أنا، أعلم الآن فقط .. لماذا ما كانت تحكيه الجدّات (شئٌ) مُضحِك !


الله .. اللغز

منطقة المعادي هادئة بطبعها ، لن تجد أفراح الخميس بأغانيها الشعبية الصاخبة ، و لن تفزع على أصوات الباعة الجائلين صباحاً بالكلمات المبهمة مثل " باليييييييلييييين " و تكتشف أنه يبيع "البصل" ، الهدوء هنا قد تراه بروداً ، فلا جيرة حميمية قد تربط بيننا ، ربما نلقي السلام صباحاً إذا تلاقت سياراتنا .

غير ذلك فهم يتقابلون في المسجد في رمضان و أحياناً صلاة العشاء في الأيام العاديّة ، بينما أنا لا أقابل أحداً على الإطلاق ، لأني لا أذهب للكنيسة مُطلقاً ، لست مؤمناً لهذا الحد الذي يضطرني لاقتطاع أكثر من ساعة يوم الأحد ، الذي أرفل في نعيم الفراغ صباحه ، و في السينما ليله .

كذلك زوجتي لم تكن مُتديّنة ، معماريّة تعشق الفنون معظمها إلا الغناء ، لأنه يقيّد خيالها عكس الموسيقى ، الكلمات مع اللحن توضح كل شيء ، وربما مخيلتها تصل لمعانٍ أفضل بدونها ، لذا فهي تقضي معظم أوقاتها في عملها ، و في

فراغها تقضي معي وقتاً في السينما أو لو كنت مشغولاً تذهب لأحد معارض اللوحات.

اسمها "ريهام" ، طبعاً توقعت أن يكون اسمها "تريز" مثلاً أو "ماري" ، مثلما نتوقع أن تكون أسماء كل رجال المسلمين "محمد – مصطفى – محمود" ، و الحقيقة أن الأسماء لا يجب أن تكون مُوحّية بدينٍ معين ، لأن الجنين لا يختار دينه ، فلماذا أجبره على اسم يوحي بالاسلام أو المسيحية ؟! لماذا أجبره على اعتناق دينٍ أصلاً و ربما يرى بعدما يشبّ عن الطوق ، أن دينه غير ما نزل على البشر من قبل ، ربما يختار الفن ديناً له مثلما تعتقد زوجتي ، ترى الفن هو نقاء الروح ، و أنك تقترب من روحك إما بممارسة الفن أو تذوقه ، و كلما زاد اهتمامك بالفن ، ارتقيت في مرتبة البشر ، نوع من اليوجينيا الفنية التي تُصنّف البشر حسب اهتمامهم بالفن .

أُدعي "فهمي" ، كان اسمي حين وُلدت "صموئيل" ، لم أغيره لأني كفرت بالمسيحية – حاشا الله - ، و لكن لا أريد لاسمي أن يكون

مميّزاً لي ، نعم الأسماء كانت لتميز بين البشر ، و لكن "صموئيل" يضعني في خانة المسيحيين المتدينيين ، وأيّ مسلم لن يراني في الكنيسة سيحكم أن المسيحيين يكرهون دينهم ، وهذا أسوأ ما قد أقوم به تجاه الكنيسة !

"فهمي" اخترته بديلاً كيّ أعبر به عن ديني و معتقدي و هو " فهمي الخاص للحياة " ، أرى أن الحياة عبارة عن ألغاز متصلة ببعضها ، و الإنسان الأفضل هو مَن يصل للغز الأخير ، العمل و الجهد البدني عبارة عن معوقات لحل اللغز ، نوع من التعتيم أو التضليل ، صعوبة اللغز أننا في عالم لا يتصل بعوالم اللغز نفسه ، الخالق ، و لقد خُلقنا في هذا العالم لا لنستمتع بالفن مثلما تعتقد "ريهام" ، لكن لحل هذا اللغز الأكبر "الله" ، لذا ستجد في غير أوقات عملي و ترفيهي أطالع كتب الميتافيزيقا و الباراسيكولوجي ، هناك طاقة داخل البشر لم نكتشفها بعد ، تتجاوز طاقة الأدرينالين الذي دفع أمّاّ لرفع نخلة عملاقة وحدها لتنقذ طفلتها ، طاقة أوقن أنها طريق الوصول لحل اللغز "الله" ، فلماذا خلق هذا العالم كله ؟

الإنجيل لم يُجب بشيء يرضيني ، كذلك صديقي "يحيى" المسلم لم يقنعني أننا خُلقنا لنعبد الله ونوّحده ، ما حاجته ليخلق كائنات لمجرد أن تعبده ، يردُّ صديقي أن لابد من بداية لكل شيء ، لا نسأل عنها ، ولكن أليس من المخيب للآمال أن نُحرم من السؤال عن بدايتنا ؟!

على أيّة حال ، حل اللغز مجرد سعيٍ و موقن أني لن أصل لحلّه أبداً ، لأن ببساطة لو حُلّ اللغز سينعدم سبب وجود البشر بعدي ، الأمر أشبه أن توزع إجابات الامتحانات قبل عقد اللجنة ، ما أهمية الامتحان وكيف سنفاضل بين الطلبة ؟! ، لذا فلم يشغل حل اللغز الكثير من تفكيري ، لكنه بقى مؤثراً على اعتقادي في الله و في عالم الملكوت كاملاً .

المنطقة هادئة بطبعها ، و من النادر أن يدور شجار بين السِكان و بعضهم ، ربما الأطفال يتعاركون قليلاً ، و لكن الصفو يعود سريعاً ، كانت المنطقة هادئة إلى أن..قامت الثورة !

فجأة حلّ الشيطان و انقلب الحال ، عربات الإسعاف تصدم المارّة ، و يطلق راكبوها الأعيرة الناريّة في الهواء ، كنت وزوجتي في شقتنا نتابع الأخبار الداميّة ، و أقول لها : بدلاً أن يكون الله رحمةً ، أنزل العذاب على عباده ! ، لن نحل اللغز يا "ريهام" .. لن نحلّه أبداً !

صرخت في وجهي لتوتر أعصابها و قالت : أيّ لغز ! لقد خلق الرب البشر جميعاً وتركهم في الحياة يتعاملون ، كلٌ يختار كيف يعبده ، هناك فاسدون حكموا وشعوب نقيّة أُستضعفوا ، ولكن الرب لم يرض عن هذا ، و آن الوقت لَيثور الضعفاء !

احمرّ وجهي و صرخت : ولماذا جعل الفاسدين يحكمون ؟! أليس من الأحرى بعباده أن يرحمهم و يحميهم !

أشاحت بوجهِها و نهضت غضوبة : لن تفهم ! اللغز في السعيّ و التناحر !

قطع حالة التوتر صوت نداء المسجد : احموا بيوتكم ! احموا بيوتكم !

هرع مَن بالبيوت من رجال و شباب بالعصا و سكاكين المطابخ إلى ساحات بيوتهم ، أخذت عصا ضخمة من غرفتي ونزلت أمام البيت تاركاً "ريهام" تنفث غضبها في الرسم ، وقفنا جميعاً مُتحفزين ، الجميع ناعسون ها هنا ، قلقون على كل شيء ، حال البلد ، حال بيوتهم ، كيف سينتهي الأمر ، وبعد ساعات بلا أيّ حادث عارض ، جلس الجميع وبدأت ساحات النقاش !

المعظم كان يتحدث عن "مبارك فاسد و لكن مَن سيتولى بعده ؟" و"مَن يدير الثورة تحديداً ويوجهها ؟" ، لكني انضممت لجماعةٍ من المعارف من بينهم صديقي "يحيى" ،وهو صديقي في العمل بالمناسبة ، وطرحت عليهم سؤالاً "لماذا تقوم الثورات و تُسفك دماء الناس بينما الله مَن يكتب القدر ؟"

حرج قد حدث لأن معظمهم مسلمون ، هم يظنون أني كافر أصلاً فكيف يبدأون معي

الحديث ، لكنهم تحدثوا ، أحدهم قال : لأن الحياة مكان ابتلاء واختبار ، ولو تدخل الله في كل شيء ولم يترك الخيرة للناس ، ما كانت حياة بشر إذن ، لكن حياة عبيد ينفذون الأوامر بلا إرادة !

فسألته : كيف تعرف أن الله فعلاً نيته كما تقول ؟!

فردّ أحدهم و كان مُلتحياً : لقد ذكر في القرآن ما يدل على ذلك !

فتنتحنحت في حرج ، فقال صديقي "يحيى" مازحاً : أعرف أنك لا تؤمن بالقرآن و إلا كنت مسلماً !

ثم استطرد قائلاً : و لكن الإجابة شافية بالفعل ، فبينما يقول الله أنه خلق كل شيء بقدر ، يخاطبنا أن نتقيه وشرَعَ لنا في الحياة ما نمتثله ، وترك في الفقه ما نجتهد فيه ونقول الآراء ونختار فيما بينها ، حتى أنه قال " أنتم أعلم بشئون دنياكم " !

فقلت : نعم .. جميل ولكني لِن أقتنع بأن ملكاً من السماء أنزل كلاماً علي نبي على فترات متقطعة ، ولا أعرف كيف يكتب أهل الملكوت مثلنا ، وكيف يتحدثون لغتنا ، لا تقنعني بأن أصدق هذا الكلام !

لم يردّ أحد حتى لا تحدث أزمة ، أدركت ذلك ، فاعتذرت قائلاً : أنتم تعلمون أني أحترمكم و أحترم دينكم ، و لكني مسيحي وإن اقتنعت بما تقولون لكفرت ، وهذا ما لا تتمنوه لي ، كما لا أتمناه لكم .

وفي الصباح صعدت لشقتي و أنا موقن أن أحدنا لن يحلّ اللغز أبداً !

كانت أيام الثورة متشابهة ، ننام صباحاً ونستيقظ ظهراً نشتري ما نحتاجه ، ثم ننام و نستيقظ ليلاً لنحمي بيوتنا ، وتدور أحاديث السمر لتفكّ من توتر الجو ، كنت قد نسيت بالفعل كل شيء عن اللغز بعدما أيقنت أن أحداً لن يحلّه ، "الله" مجهول تماماً ، لا نعرف لماذا خلقنا ، و لكننا على الأقل موجودون ، و"ريهام" لم تكن مخطئة

بالكُلية حينما ذكرت أن اللغز في السعي و التناحر بين الناس في هذه الحياة .

حتى نقاشي مع المسلمين عبارة عن تناحر ، لديّ وجهة نظر ولديهم عكسها ، هكذا يكسب أحدنا الآخر إلى جانبه أو يظل كُلٌّ في مكانه ، على الأقل هناك وضع ما قد استقرّ فيه كل طرف ، و لكن خلافي مع "الله" مبهم غير واضح ، هو في طرف لا أراه ، ربما لا يكون لغزاً أصلاً ، ربما خلقنا ثم تركنا نتناحر ، ثم بعد نهاية الوقت يحاسبنا .

لم أتردد على الكنيسة صغيراً فلا أعرف بالفعل الكثير عن الله ، وما قرأته فيما بعد مبهم ، يصورونه أحياناً أنه طاقة داخل كل منا ترشده للخير ، بينما كل ما حولنا شر نصارعه ، وأن هذه الطاقة بعد الموت تصعد للسماء لتزيد حجم طاقة السماء ، إلى أن تنتهي طاقة الأرض جميعاً و يكون يوم الحساب .

تفسير لم يقنعني ولا يقنع أيّ طفل ، أشعر كثيراً أني شرير ، ليست ظروفاً خارجيةً هي ما يدفعني للشر دائماً ، ضربت "ريهام" مرّة لأنها صرخت في

وجهي ، صرختْ لأني كدت أسبب حريقاً في المطبخ ، وكيّ أدفع الحرج ضربتها ! ، الحرج داخلي قد دفعته بقرار داخلي أيضاً ، هذا الداخل خبيث فعلاً !

"ريهام" كانت غاضبة ، غاضبة من كل شيء ، لأن نقاشي معها كان في ساعة متوترة ، ولأن ما يدور من سفك للدماء يقتل كل شيء داخلها بعنف ، نعم هي تؤمن بوجود صراع يدفع الأحداث قُدُماً ، لكنها ليست من أنصار الصراع الماديّ ، تعتقد أن الصراع الأمثل هو جلوس الجميع على طاولة مفاوضات ، ثم يخرجون متوافقين مبتسمين ، ينوون تغيير الحياة للأفضل ، روح الفنان داخلها لم تحتمل هذا الكمّ من القتل والعنف ، لكنها في صلواتها كانت تدعو الله أن يشملنا برحمته ، مثلما فعلت زوجة صديقي "يحيى" في قيامها ، الجميع من حولي يؤمن أن الله لم يعلم أن هذا سيحدث ، و يريدون منه أن يتدخل الآن !

مرّت أيام الثورة ، وحكم العسكر ، ثم كانت الطامّة .. مجاعة الصومال !

هنا لم تحتمل أعصاب "ريهام" وقررت السفر إلى هناك ، قررت أن تكون طرفاً في الصراع ، لن تترك الأطفال يموتون من الجوع ، على الأقل لن تتركهم تعساء في لحظاتهم الأخيرة !

سافرت وحدها ، رفضت أن أصحبها ، رافقت جيتارها و رحلت إلى هناك بعد سفر طويل مرهق محفوف بالمخاطر ،لكنها وصلت هناك ،كانت تشارك في توزيع الوجبات على الأطفال والأمهات ، كانت تغني لمريم المقدسة وأرواح الأطفال تزهق من حولها ، كانت ترى بسمات الأطفال على وجوههم وهم يودعون الحياة على نغمات أغانيها ، كانت تدعو مريم القديسة أن تنقذ هذه الأرواح من الهلاك ، لكن الأطفال يموتون كل لحظة هنا ، لا أحد يتدخل ، لا رجال الأعمال ولا رؤساء الدول ولا الله في الملكوت !

عادت "ريهام" .. عادت بلا روح .. عادت تحمل جيتارها المُحطم .. عادت بذكريات أليمة ..

عادت .. "ريهام" أخرى!

****

نشاهد التلفاز سوياً بعينين حائرتين ، في سوريا الجميع يُقتلون ، الأطفال تُسفك دمائهم على قارعة الطريق ، والرجال يُجبرون على عبادة بشّار كإله ، هذا كله لم يستفز الله في الملكوت !

أمسكت ريهام بالريموت وأغلقت التلفاز وقالت :

" إن كان قد خلقنا وتركنا ، إذن فلا أمل من دعائه لنجدتنا ، لنفعلها نحن ! "

وفي مساء الأربعاء ، هوّت جثة "ريهام " من الدور السابع .. لم يِنقذها أحد كما لم ينقذ هذا الأحد العالم الدامي ..

و بقيت وحدي أبحث عن حلّ اللغز مُجدداً : لماذا خلقنا الله فعلاً ؟!

تمّت،،



لماذا تقتل الناس ؟!

الآن أنا في الستين ، لا أعمل لدى الحكومة كيّ أُحال للمعاش ، أعمل كأديب يستمتع بأدبه ويكسب منه مالاً وفيراً ، هذه من الحالات النادرة التي تجتمع الموهبة و المهنة معاً ، لكنها من الحالات النادرة أيضاً التي لا تجد فيها ما يُقنعكِ بالخالق .

في الستين إمّا أن تكون زاهداً عابداً لأن لا شيء يشغلك بعدما تركت عملك ، أو تفعل كل ما تريده وحُرمت منه بسبب العمل ، و لكن شيخاً مثلي لم يفعل إلا ما يريده طيلة حياته ، لم يتبق له سوى الذكريات والتأمل ، وَكم كانت السنوات الماضية مُفعمة بالذكريات !

أول الذكريات الجديرة بالذكر هي "كارما" ، الفتاة النحيلة الهشّة التي هِمت بها حباً في الجامعة ، مثقفةً عاشت تفتن مَن حولها بحديثها المُرتّب السلس المُقنِع ، وعاشقةً ظلّت طيلة بقائها معي ، لهذا لم يكن من المنطقيّ تماماً أن تموت على فراشها بغير مرضٍ ، و قد خططنا لكل شيء في المستقبل الذي صار خيالاً !

لا أعلم لماذا ماتت "كارما" والكارما لا تفنى ، كانت مُفعمةً بالحياة ، كالمطر على الورد اليابس تحييه ، كانت كذلك في حياتي ، وحينما فقدت أمي ، وجدت فيها أمّاً حنوناً لم تلدني من رحمها ،في سِرادق عزائها جلست لا أفهم ما يدور بالضبطَ ، يقرأون القرآن لها كيّ يُغفر لها ، لقد ماتت في الثامنة عشر ، فلماذا خُلقت وهي لم تُختبر بعد ؟!

تقول صديقتها المعتوهة ، أنها كانت ليبرالية فاسقة الأفكار ، صديقتها هذه منتقبة من ذوات الأربع "التكفير – التحريم – التطرف – الغباء" ، ظنت أن الله رحم "كارما" من أفكارها ، لماذا خلقها الله و قد كتب قدرها بنفسه ، و قسم لها الليبرالية فكراً لها ! ، لماذا يمنعنا الله عمّا كتبه ؟!

أمها تدّعي أن الله قبضها إليه وهي صغيرة كيّ يغفر لها ، ولماذا وهو الخالق يضع شرطاً ليغفر لها وهو بيده مقاليد الأمور جميعها ! ، ولو أراد لها الموت المُبكر ليغفر ، فلماذا قدّر لها الشر في الكبر ؟!

أمّا أحد الطلبة السلفيين في الجامعة ذكر وهو يعلن الخبر ، أن موتها عظة لنا نحن الشباب ، أن نتقي الله ،و أن سر الموت الفجأة هو العظة ، هل صار الإنسان رخيصاً ليخلقه الله ليكون مجرد عظة لغيره ؟! هل تُختصر حياةٌ كاملةٌ في مجرد مثال للتذكرة ؟!

ما أعلمه أن الله خلقها ليضعها في مُختبر الحياة ، تخطيء وتصيب ، تحيد وتلتزم ، ثم يحاسبها ، ولكن متى تفعل هذا كله وقد قبضها فجأة و هي في الثامنة عشر ؟!

ماتت "كارما" لتترك أكبر علامة استفهام حول " ما الذي يفعله الخالق تحديداً ؟! "

الحياة تمرّ ، ويشاء الله أن أقابل "تولا" ، الفتاة اللبنانية غريبة الأطوار متقلبة المزاج ، قابلتها في حفلٍ بساقية الصاوي ، كانت واقفةً وحدها تدوّن شيئاً في ورقة ، كان حفلاً غنائياً ، ظننتها ناقدة فنيّة ، فاقتربت منها و تبادلنا أطراف الحديث ، عرفت أنها ممثلة مغمورة أدّت أدواراً صغيرة في المسرح بلبنان ، وأتت إلى مصر مع أمها بعد وفاة

والدها ، أمها مصريّة ويبدو أن سبب وجودها في لبنان قد انعدم ، "تولا" كانت غريبة بالفعل ، ليست غرابة تسريحات الشعر أو الصبغة الزرقاء ، ولكنها غرابة الميول والاهتمامات ، كانت مغرمة بتأدية أدوار المحتضرات ، تدّعي أنها اللحظة التي تلخص كل شيء في الحياة ، فيها يرى الإنسان كل ما مرّ به في الدنيا و يطلّع على قدرٍ ليس بقليل من عالم الغيب ، اللحظة التي يقترب فيها الإنسان من عالم خالقه بوضوح ، حتّى طغى هذا على بقية اهتماماتها ، صارت تقرأ كثيراً في أخبار الموت و آثاره ، ولمّا يكون اهتمام فتاة فاتنة بكيف يموت الناس وكيف يُدفنون ، هذه هي غرابة الأطوار فعلاً !

لهذا أحببتها ، وكان يوم زفافنا غريباً ، ارتدت كفناً في عُرسها ، وكانت مراسم الحفل فرعونية تخصّ دفن الملوك في قبورهم ، تم دفنها بالفعل ، وصليت عليها ، ثم شربت ما يبدو كـ سُمٍ و سقطت و دفنوني بجوارها ، و زفّونا و نحن موتى !

شغفت بجنونها ، أنجبت لنا "كارما" صغيرة ،
كانت في أيامها الأولى هادئة ، ثم بدأت تزحف
على يديها كقط رضيع ، ثم بدأت ساقاها
تحملناها ، فمشّت كالبطريق تترنّح ، كانت فاتنة
كأمها ، كانت .. و لم تعد كذلك ، ماتت "كارما" !

لم تمرض ، لم تُصب ، لم تسقط من الشُرفة ، نامت
ثم ماتت ، لم يمر عليها ربيع واحد ، لم تُخلق
لتُختبر ، بل خُلقت لنُختبر نحن في الصبر ، ببساطةِ
تحولت "تولا " لمكتئبة لا تفكر سوى في الانتحارٍ
، وصرت أنا الرجل ذو الماضي المؤلم !

ماتت "كارما" و لم نعرف لماذا ماتت ، حتى "تولا"
التي آمنت أن الأرواح بعد الموت تتسع معرفتها
و نقاؤها ، لم تتفهّم موت ابنتها الوحيدة ، فروح
ابنتها لم تكن تنطق إلا همهمة غير مفهومة ، فأيّ
سعة علم قد تستقبلها ! ، قال لنا الأقرباء أنها في
الجنة لأنها غير مُكلفة ، هي لا تعرف معنى الجنة
أصلاً لأنها لم تر عذاباً من قبل ، نحن نعرف معنى
العذاب بحق ، نعرف أن تغني لطفلتك لتنام ،
وفي الصباح يقرأون القرآن على روحها ، نتذكر

جيداً كيف كُنّا نضحك على مشيتها و اليوم لا نرى إلا صورتها معلقة على الحائط .

لا نعرف لماذا ماتت "كارما" ، و لكني أعرف تماماً لماذا انتحرت " تولا" !

اليوم بعدما مرّت الأعوام عليّ وحيداً ، على الحائط معلقة صورة "كارما" طفلتي ، وفي القلب صورة لـ"كارما" حبيبتي ، وفي العقل ذكريات لـ"تولا" زوجتي ، هؤلاء ماتوا جميعاً ، فقط "تولا" ماتت بإرادتها ، أو قُل كانت نتيجة بديهية لموت طفلتها بلا سبب ، لماذا ماتت طفلتي ؟ لا أعلم ، لماذا ماتت حبيبتي ؟ لا أعلم ، كل ما أشعر به أن "تولا" انتحرت لموت طفلتها ، وأنا فقدت إيماني بالخالق ، و جُلّ ما أتمناه هو موتي لألقاه و أسأله " لماذا تقتل الناس ؟! "

تمّت،،

كفرنا بما خلقنا

حتى جدّي كان ينظر لي و يقول : أنت غريب الأطوار ، و إمّا أن تكون ذا شأن في المستقبل البعيد ، أو معتوهاً في المستقبل القريب ! ، لم أسلم كذلك من تعليقات أمي وهي تقول : تختبيء كالفئران و لا أدري أين تذهب ! سنحفر تحت الأرض ربما نجد سرداباً خفيّاً ! ، أخي لم يكن له دور في ازدرائي ، لم يعاملني أني إنسان أصلاً ! ، كان ينظر لي ويمطّ شفتيه ويرسم على وجهه ابتسامة ساخرة ، ثم ينصرف !

الأسرة مُتدينةِ ، الأم منتقبة والأب إمام مسجد التوحيد بحي إمبابة ، بينما الأخ من الجماعة السلفيّة ، الجد كان معتدلاً ، من الطراز البشوش الذي لا تعنيه متاعب الحياة ولا كراهية البشر ، يعيش وحيداً في بيته ، يزورنا كثيراً ، وكان حائط الصدّ كيّ لا يقتلني أبي وتسمّني أمي بالسيانيد حينما وجدوني فيّ الشُرفة مختبئاً .. أرسم على لوحة بيضاء عيني فتاةِ شقراء !

أبي لم يكن عالم ذرّة ، الحقيقة أنه لم يفلح في تعليمه ولجأ للحيلة المعتادة "يعبد الله لأنه فاشل

في غير ذلك" ، درس شيئاً مما يرددونه في المساجد على مسامع الحمقى من المُريدين ، والحقيقة أن مهارته أهلتّه ليكون إماماً بعد ذلك ، هو يُسمع الناس ما يريدونه ، إن أرادوا زجراً عنفّهم ، وإن أرادوا رقةً كان أشبه بفتاةٍ هشّة على المنبر .

لكنه رغم ذلك أصرّ على أخي الأكبر أن يلتحق بكلية الطب ، وأخي لم تكن له إرادة ، هو يريد أن يعبد الله كيفما كانت الطريقة ، هكذا ربّاه أبي منذ الصغر ، لا تأكل إلّا إذا أرضيت الله وقرأت شيئاً من القرآن ، لا تلعب لأن هذه ملهاة عن ذكر الله ، لذا كبر أخي عنيفاً يزدري مَن لا يعبد الله ، هكذا كان يرى البشر ، صنف يتقي الله ، وصنف لا يرى الله أصلاً ، هذا الصنف الأخير يندرج تحته غير المُلتحين وغير المنتقبات ، و مَن يقف في الحافلات لا يقرأ القرآن ، هؤلاء جميعاً هم كهنة المعبد الكُفّار !

أمي كانت من هؤلاء الفتيات اللاتي تربيّن على الطاعة ، تطيع أباها أو أمّها أو أخاها أو زوجها ، المهم أن يكون هناك قائد ، وفي غير أوقات

طاعتها لغيابهم ، تقرأ القرآن أو تطبخ أو تجلس كحجر أصمّ بعينين زائغتين ، لا تفكر في شيء لأن التفكير حتماً سيقودها إلى الحرام بعينه .

هكذا حذرها أبوها الخبّاز الذي كان معلم أبي و شيخه ، لذا كانت في بيت أبي تقرأ القرآن ولا تترك مقام الصلاة إلا لتطبخ ثم تعاود ، لا أعلم هل تعبد الله حقاً أم تخشى الفراغ لا أكثر ، أمي لم تتلق أيّ تعليم ، و أبي حرمها من أي وسيلة متعة حتى التلفاز لم يدخله البيت ، فكانت كالإنسان في بدء الخليقة يعيش ليأكل و يأكل ليعيش ، غير أنها تعبد الله بالإضافة لذلك كيّ لا تملّ .

كان جدي – لأبي – بشوشاً كما قلت لك ، و لا أعرف كيف خرج من سلالته هذا الأب المتغطرس ، لكن جدتي – رحمها الله – كانت من النساء العنيفات اللاتي تتحكمن في مقاليد البيت و تصرفن شئون كل شيء ، كان جدي على نقيضها تماماً ، طيباً لا يتدخل في شيء إلا إذا أذن له ، لم يكن ضعيفاً كما يحكي لي ، ولكنها ببساطة تحملت أعباء الحياة وتركته ينعم براحة البال

بغير قصد منها ، كان يتردد على المسجد في الصلوات الخمس ، ثم يذهب إلى المقهى يدخن النرجيلة مع أصدقائه ، وفي الأعياد كان يدخن الحشيش فيعود مسطولاً لزوجته المُتسلطة التي تنظر له في حدّة ، بينما هو لا يعنيه أيّ شيء ، إنه يستمتع بالحياة ولن تكدر صفوه هذه المجنونة !

وُلدت لأرث من جدي الرغبة في الاستمتاع بالحياة ، لكن ليس بالحشيش لأني وُلدت ضعيف البنيّة لا أتحمّل أيّ دخان ، ولكن وهبني الله موهبة الرسم .

كنت أرسم بيتاً فيه أم مثقفة تقرأ الكتب لأولادها ، وأب بشوش يحمل الحلوى لصغاره ، كنت أخفي ما أرسم تحت فراشي لأن أبي ضربني حينما وجدني – صغيراً – أرسم على الحائط ، و صرخ في وجهي : أتريد أن يكتوي لحمك في الجحيم ! ، ومسح بكمّه ما رسمت بالطبشور .

لم أخف حينها ولم أزدجر ، فالرسم هو السلوى الوحيدة في هذا البيت الكئيب ، وتعلمت كيف

أخفي جيداً ما أرسم ، كانت أمي تُخزّن الجرائد التي تفرشها لسُفرة الطعام تحت مرتبة السرير ، وكنت أخفي ما أرسم بين طيّات الصحف ، كانت نافذتي إلى العالم وقتئذ هي هذه الصحف ، كنت أقرأها جميعها ، أبي لم يهتم بها رغم ما تحويه من فجور جليّ بالنسبة إليه ، هي للطعام لا أكثر ، وإن رأى فيها شعر امرأة ، قطع الصفحة أثناء تناولنا الطعام و يأمر أمي أن تأتي بأخرى لا تُخرجنا من رحمة الله جميعاً .

كنت أقرأ ما يكتبه يوسف إدريس ومصطفى محمود وعبد الوهاب مطاوع ، منذ الصغر حتى التحقت بالثانوية العامة ، حينها أكتشف أبي ما أخفيه ، فقد قررت أن ألتحق بالقسم العلمي ، وفرح أبي كثيراً حينها ، سألتحق بكلية الهندسة كما يريد لي – كما تصور - ، ولكن بعدما تفوقت و كتبت في ورقة التنسيق "فنون جميلة " ، كان يوم القيامة خاصتنا قد حلّ في البيت !

صرخ كثيراً وضربني أكثر ، وتدخلت أمي واقترحت أن أحوّل من الكلية مع بداية العام الدراسي ،

ذهبت لجدي غاضباً وطلبت إليه أن يتدخل ، لن أترك حلمي في الهرب من هذه البيئة الموحلة لأنفذ رغبتهم في تقييدي ، واصطحبني جدي إلى أبي وحاول إقناعه ،لكن أبي رفض تماماً أن يفتح الموضوع ، حينها انطويت في غرفتي ولم أعرف ما أفعل تحديداً ، هل أهرب وأعمل لأكسب لقمة عيشي ؟ أم ألتحق بالهندسة وأتعلم الرسم وحدي مثلما تعلمته سابقاً ؟

لا ، لن أنفذ رغبته ، هو يريدني أن أعبد الله بالهندسة ، والله ليس معمارياً كما لم يكن طبيباً مع أخي ، الله يحب أن يرى الكون جميلاً بصنع عباده ، هكذا خلقنا بتشريح فاتن وأيدٍ دقيقة لنرسم ونجعل الحياة لوحة رائعة بهيّة ، لهذا لن يذهب دالي للجحيم ، و لن يكتوي لحم مايكل أنجلو ، هؤلاء صنعوا حياةً رائعة ، لن يعرفها أبي بدينه الموحش الصلد ، لقد حرمني منها جميعاً ولم أعرفها إلا خلسة ، ولن أضع حياتي بين يديه يوجهها نحو ربه المزعوم كيفما يشاء !

تركت البيتِ وهربت ، أرشدني جدّي لصديق له يقطن فِي حيِ العباسية ، صديقه عجوز وحيد يريد مَن يرعاه ، كما أنه يدين لجدّي بمالٍ وفير، سينفقه عليّ إلى أن أجد عملاً .

في رحلة بحثي عن عملِ ، كنت أصطحب ما رسمت وأعرضه على عدة معارض ، وبعد عناء اشترى أحدهم لوحة ، لبيت في الريف ، وأطفال خارجه تلعب ، وزوجة تحضَّر الطعام و تنظر إليهم من الشُرفة ، بينما الأب يلهو مع كلبه الصغير ، وبعد لوحات أخرى اشتراها أبرم معي عقد عمل ؛ليشتري جميع لوحاتي وبعد عامٍ قرر أن يقيم لي معرضاً !

الرجل كان عظيماً ، كان يقول لي : الفن وحده هو ما يجعل البشريّ إنساناً ، لتأكل ولتشرب ولتعاشر النساء ، أنت بلا روح حقيقية ، إنه جسدك ما يعيش ، لكن انظر للوحةِ أو انصت للحنِ .. إنها الحياة يا فتى التي نعيشَ لأجلها !

هكذا كان أبي الروحي يسعى لمساعدتي ، ويوم افتتاح المعرض كاد يبكي وهو يقول لي : كُن للفنّ ولا تكن لغيره ! .

كان له ابن وحيد انضم بعدما شبّ عن الطوق إلى جماعة الإخوان المسلمين ، وترك أباه الذي يعمل بالفن ولم ينصت لنصائحه ، وساق إليه الكثير من الشيوخ ليزجروه عن عمله الحرام ، و لكن أبي الروحي لم ينصت لهم وطردهم من معرضه وهو يصرخ : لا يلتقيان .. لا يلتقيان أبداً !

نعم لا يلتقيان ، الحرام والفن لا يلتقيان إلا في نفس شيطان من الجحيم ، ولم يخلقنا الله شياطين ، لقد خلقنا بمواهبنا لا لنقتلها ، إنما لنعبده بها ونجعل الحياة التي خلقنا فيها أجمل .

لكن هؤلاء مَن يرون الحياة موحشة وهم غرباء فيها ، وأن النصر كل النصر أن تعود اللحية و يكتسح النقاب ، هؤلاء لن يستمتعوا بحلاوة الحياة أبداً ، هذا المُلتحي كيف يعود لبيته و يقضي ليلة رومانسية مع زوجته ، بينما يشارك

شفتيَ زوجته لحيته الكثّة ، إن زوجته ليس ضرورة كاللحية ، لقد تزوجها لتشذبها له ، وتزوجته ليضع النقاب على وجهها فيصنع منها صنماً حيّاً ، هكذا يراها شيئاً يجب ستره .

يقولون أنها جوهرة يجب أن تصونها في مكان أمين ،لكن الجوهرة لا تملك إلا الجمال ، بينما المرأة إنسان يملك كل شيء ، المرأة تملك روحاً وعقلاً وقلباً ينبض ، ولو حبستها في قوقعة ولو كانت ماسيّة ، فإني أقتلها لا أحفظها !

مرّت السنوات ، وجاء ني خبر وفاة أمّي ، لم أذهب لأن أبي حرّم عليّ دخول البيت ، وذهبت لجدّي في الشارع المجاور ، كان قد هرم فعلاً وشق المرض ظهره ، فسألني عن حالي وهل أنا راضٍ عن نفسي ، فقلت له : الآن عرفت الطريق إلى الله مثلما عرفه النبيِ إبراهيم قبلي !

الآن صارت لي رسالة غير أن أختبيء من أبي وأعانده ، لابد أن تُهذب نفوس الناس بالفن لا بعذاب القبر ، لابد أن يعيش الناس ليتمتعوا

بجمال الحياة ، لا خوفاً من الموت ، الآن فقط
أقرر أن أقيم معرضاً بجوار مسجد أبي !

سأعرض لهم كل ما رسمت عن الحياة الرائعة
التي يجب أن نعيشها ، هذا الكوخ الريفي
البسيط الخالي من تعقيد الأثاث ، والأب البشوش
الحاني الذي يحب أبنائه ولا يمتلكهم ، والأم
المثقفة التي تروي قصص الجنيّات لأطفالها في
المهد ولا تزجرهم عن اللعب بأن الله سيكويهم
في الجحيم .

يجب أن نكون هؤلاء وأفضل منهم ، يجب أن
نرى الجمال في حياتنا ونعمل عليه ونجعله
يسيطر ويسود ، نعم الحياة قاسية والعمل مرهق
، لكن الزوجة الجميلة والأطفال الرائعون يجعلون
كل هذا الشقاء بلا وجود ، يجعلونه عدماً ، متعة
الجلوس للأصدقاء وسماع موتسارت تمنع عنك
خواطر غلاء الأسعار الكئيبة ، اللحن يهذب
روحك ويجعلك أقرب للنقاء ، لن تشغلك الحياة
الدُنيا وقتئذ ، أنت تتحد وملائكة السماء في كيان

واحد ، أنت جبريل جديد يوحي إلى الناس أن استمتعوا يالحياة وارفلوا في نعيمها !

المعرض مفتوح الآن ، موسيقى بيتهوفن تشدو من الداخل ، اللوحات على الحائط تعلوها إضاءة خافتة ، المكان هاديء ، كل شيء مستقر ، الأرواح تنتظر الولوج للملكوت !

وفجأة ، يقتحم المعرض أتباع أبي ويقذفونه بزجاجات المولتوف ، كل شيء يحترق ، الكوخ الريفي صار رماداً ، الأم صارت بقعة سوداء على الحائط ، الأطفال يتآكلون ، بيتهوفن تحوّل لجعجعة "الله أكبر و لله الحمد " ، الجميع يصيح في نصرٍ "أحرقوا الكفر يا مسلمين ! " ، أهرول للداخل أنقذ لوحاتي ، الغيوم وسحب الدخان تغلف كل شيء ، هراوة ترتفع في الهواء وتسقط على رأسي و ..

"هذا الدين لن يهزمه الكفر أبداً "

كانت آخر ما أسمع ، و آخر ما آمنت أن :
"نعم .. لن يُهزم أبداً ! "

-2-



بحثاً عن فضيحة



ما يحدث في شارع الحصري ليلاً

المقهى ليس بعيداً عن رؤيّة الشُرفة ، لو تمتّعت بنظرٍ حاد و لم تتعرض عيناك للهيب دخان الشيشة طويلاً ، يُمكنك ببعض التمعن رؤيّة الست "منال" و هي تتكيء على سور الشُرفة بقميص نومٍ رخيص ،لكنه فاضح بما يكفي .

المُريب أن لا أحد يرى غرابةً أن تخرج امرأة بعد مُنتصف الليل للشُرفة بقميص النوم ، لا تفعل شيئاً سوى أن تنظر للمارّة في تمعّن و كأنها ترى بضاعةً و تُقيّمها .

لا أحد من رُوّاد المقهى يلتفت لرؤية الشُرفة ، كأن الغريزة الجنسيّة قد انسحبت من اليأس ، أو ربما قد فشا الانحلال بما يكفي ألّا تكون (الرؤية) مُرضيّة أو ذات قيمة .

الست "منال" لم تهدأ و صارت أكثر عصبيّة ، ربما هي تنتظر زوجها بعدما أعدّت نفسها جيداً ، كولونيا الهشاميّة تفوح منها كمتجر عطارة ، و قميص النوم فاضح فعلاً حتى أني أتوقع أ الشيطان قد لعب برأسها و هي ترتديه و راودها عن نفسها ، لمذا تأخر هذا الوغد الملعون !

لاحظ رفيقي في المقهى انشغالي بالشُرفة والست "منال " ، فابتسم و قال لي : " ستجد ضالتها قريباً .. لا تقلق ، ربما تكون أنت ضالتها ! " ، فانتبهت له ، هو يعلم القصة إذن ! ، سألته : " هل تعرف شيئاً عمّن تنتظره ؟ " ، فاندهش من سؤالي و كأن جميع مَن على الأرض أُوحي إليهم بالسبب !، ردّ ساخراً : أنت في شارع الحُصريّ ، أينما تقف امرأة في شُرفة بيتها بقميص النوم ، فهي تُريد رزقاً جنسياً و بسرعة ! "

ألصقت ظهري بالمقعد الخشبيّ و تأملت حديثه قليلاً ، بينما انشغل هو بتدخين ما تبقى من حجر القصّ ، الحقيقة أني في العقد الثالث و لم أمارس الجنس ، لسنا في لاس فيجاس كيّ نثمل مع فتيّات نطارحهّن الغرام ليلاً و صبحاً نفترق كأن شيئاً حميمياً لم يكن ، يبدو أن شارع الحُصريّ قرر التحضّر مُبكراً !

لماذا لا أخوض هذه المغامرة ؟ صحيح أن الست "منال" ليست آية من الجمال ، و تُعاني الترهلّات مثل معظم سيدات هذه الأحياء الفقيرة ، و لكنها

خبيرة كما أنها لا تطلب مُقابلاً غير التواجد لا أكثر ، هذا النوع من النساء لا تخشى معهنّ الفضيحة ، هُن يُحددن لك متى تأتي و متى تنصرف ، دعك أن الجميع يعرف أنها عاهرة ، لكن لا أحد يتحدث في الأمر ، لو تحدثت ستُسجَنّ بتهمّة التحرش و الاغتصاب ، غير أن الحديث كذلك من باب "رفس النعمة" !

نظرت لرفيقي و قُلت له : "سأكون رزقها هذه الليلة !" ، لم ينظر لي لكنه ردد :" لا تُخبر أحداً حتى نفسك ، زوجها رجلٌ شديد المراس و ليس كزوج الست "سناء " .. لا تُخبر أحداَ ! " ، هنا تسمرّت في مكاني و سألته " هل هي متزوجة ؟ كل ما ذُكر لي اسمها فحسب ! ظننتها مُطلقة أو لم تتزوج بعد ! "

هنا يبتسم و يُشير لي أن أذهب و يقول " سأخبرك فيما بعد .. كُل ما عليك أن تفعل ما بوسعك كيّ لا تكون سيرة الشارع و الشوارع المُجاورة ! " ، ثم وجّه ناظريه لأسفل جسدي ليتأكد أني فهمت ما يعنيه ، و كأن أحداً قد

يتورط في مُغامرةٍ مع عاهرةٍ كالست "منال" دون حصانةِ !

الآن أنا معها على الفراش ، ماذا حدث بالضبط ؟ طرقت بابها ، و نظرت لمفاتنها بثقة ، وابتسامة صفراء في ركن فمي تقول كُلَّ شيء ، جرّتني للداخل سريعاً و اطمئنت ألّا أحد رأى شيئاً ، خلعت قميصها سريعاً ثم قالت : " هل تعرف شيئاً أم بنت بنوت ؟ " ، غريب أن يُسئل "رجل" هذا السؤال ، و لكني بثقةِ أخبرتها " سترين بنفسك ! " .

كُنت سريعاً هادئاً، لم أرْ لذةً كالتي وجدتها مع "مريم" ، رغم أن "مريم" لم تسمح لي بتجاوز حدودي معها ، و اكتفينا بقُبلات حميميّة ، لكني كُنت مُنتشيّاً ، لكن الست "منالَ" كانت كالمُدرب المُخضرم الذي يعرف قواعد اللعبة ولا يُسند إليك الكثير من المهام ، كانت مباراة من طرف واحد كما أشعر الآن ، و بعدما انتهينا - أو انتهت إن أردت الدقة - أشارت لي أن أنتظر قليلاً حتى يتوّرد وجهي بدل الصُفرة الباديّة عليه ، كدت

أعترض للإهانة ، غير أن هذه الفاحشة قد هدّت قوايّ كاملةً و عجزت عن تحريك شفتيّ !

خرجت منِ شقتها لا أشعر بشيء ، كان هناك فاصلٌ زمنيٍ مع الست "منال"، دُمرت فيه صوامع و أنجب فيه أطفال ، و حُرقت فيه شياطين ، و نالت هي ما أرادت – هكذا أظن - ، و خرجت أنا ألعن "مريم" المُتزمتّة !

في اليوم التالي يروي لي رفيقي قصة زوج الست "سناء" ، الرجل يعمل في النقاشة ، مهنة مُملة و مُرهقة ، الملل أشدّ وطأة من الإرهاق ، هذا ما تقوله الست "سناء" ، زوجها صار مُملاً كعمله ، و لم يكسر روتين حياتهما الخاصّة إلّا أنه زهد فيها تماماً ، و لا يكاد يمسّها إلا ليتناول من يدها طبق الخُضار !

صبرت كثيراً ، حوّلت حياته لجحيم ، لكنه لم يُرّع ، الرجل يعود مُحطماّ بدنياّ ، دعك من أثار الترامادول اللازم ليواصل عمله ، الترامادول جعله بلا روح ، روبوت - أو على حد قولها - صنم حجر .

هُنا مُتلازمة "الفلوس – البيت" ، الفلوس تحتاج ترامادول لأن ما يقوم به في العمل يحتاج حيواناً برّياً ، و البيت يحتاج فحلاً نشطاً لأن ما يحتاجه البيت يحتاج خنزيراً – إن كنت قرأت عن قدرة الخنزير - ، على كُلِ الرجل اختار الفلوس لأن البيت لن يرضى إلا بهما معاً و هو ما يستحيل تحقيقه .

أمّا عن الست "منال" فزوجها غضوب لكنه عاجز جنسياً ، الكُل يعرف و لكن لا أحد يبوح ، هذه الأمور تعرفها سريعاً ، لا يوجد رجال كثيرون يبيتون بعيداً عن زوجاتهم بعد ليلة الزفاف بساعات ! ، جرّب الكثير من الأدويّة لكن لا شيء يفلح هذا الأيام ، أعشاب ريش النعام لا تُعالج إلّا جيبك ، و وصايا دكتور مينجٍ يبدو أنها لم تنقذه هو نفسه من الموت بالجُديري المائي ! .

حينما طلبت الطلاق كانت هذه بداية مرحلة جديدة من القهر ، الرجل استخدم كُلَّ شيء مُمكن لتعذيبها بدنيّاً و جنسيّاً – قد لاحظت علامات دمويّة بشعة في أماكن مُتفرقة - ، حينها

لم تجد المرأة أمامها إلّا العُهر حلاً وسطاً يشوّه صورة الرجل الساديّ و يُرضيها هي المحرومة .

هكذا عرف الشارع كله ما تفعله الست "منال" ليلاً ، و كذا عرف زوجها ، و كأن عهداً ضمنيّاً قد أبرماه " افعلي ما شئتي بعيداً عنّي " ، زوجها يعرف طبعاً لأن الشارع كله يعرف ، لكن لا أحد يبوح ولا هو يتكلم ، المنطقة الحساسة حول كرامته تتعامل بمبدأ "ما لا يُرى بالعين هو عدم" ، هذا يُرضيه و يزيد من تعقيد الإجراءات بالنسبة إليها ، لكن مع الوقت صار الأمر روتيناً الكل يعرف خباياه .

أمّا أنا ، صرت زبوناً دائماً عند الست .."مريم" !

تمّت،،



أصبح عندي الآن .. مكنة !

نعم أنا من هؤلاء الذين يرتدون الفانلّات الفوشيا ، و يصمغون شعرَهم المُجعد بالجلّ حتى إذا لمَستُه يدٌ خَشنّة احتال لقشورٍ بيضاء كريشِ الفراخ ،صوتي جهوريّ حتى حينما أتحدث لـ"مريم" و أعبِّر لها عن عيونها الفتّاكةِ ، "المَكنّة" صوتها جهوري ّأيضاً ،و هي كَالنضورجي يصيح على أخي إذا ما سرقت مفتاحها ؛"لأتعايق" بها أمام بنات مدرسة السلام التجاريّة ، لذا فأضطر دوماً لطلب المُساعدة من "عاصم" ابن "حَمودة البقّال" أن يجرّها معي بعيداً عن بيتنا حتى لا يستيقظ أخي مُنهالاً عليّ بما أنزل الشيطان على ألسنة الإنس من قباحة !

الوصلة أحياناً تعرض قنوات أغاني لكاظم الساهر و إلِيسا ،بعضُها فيه"حاجة حلوة" ،والآخر أسمعُه لمُجرِد أن ولاد الناس يسمعونه ،أغنيّة توفّر عليك إنفاقاً في قهوة "نضيفة" فِي مدينة نصر؛ الآن تسمع الأغنيّة و الهواء النقيِ يتسرب إلى رئتيّك ، و فِي خيالك قد صرت فنان سينما يلتفّ حوله أكثر الفتيّات عُرياً .

الأغنيّة تتحدث عن الحُب و النظرات الحنونة ؛ فتعيش لوهلة في عالمٍ بلا ألفاظ إباحيّة ولا ضحكات مجون ، فقط ملائكة تُحب بعضها بعضاً و لا يُمارسون الفُحش ، ثُمّ تُدرك أنك جمحت كثيراً بخيالك و صرت في خطر "المُحِن" ولو لبثت قليلاً لتحولّت لشاب "سيس" ، لو سِمعت هذه الأغاني من ساوند "المكنة" ؛ لصرتُ مثلها "ركوبة" ، و تُهمة "شاب سيس" مثل تهمة " أمك ضبطوها في شقة دعارة" ، كلاهما يكسر العين و يذل النفْس ، لذا فحينما يعلو صوت " ف البحر سمكة ، صياد بشبكة " من كاسيت "المكنة" كأنه يخرج من حنجرة رجولتي !

لم أكمل تعليمي بعد الإعداديّة ، فالثانوية العامة تكلف كثيراً و أبي على أد حاله كما هو عقلي ، و لن أعمل صبي ميكانيكي بعد ٥ سنوات في مدرسة صنايع ، و الأسطى "حسن " لا يعترف بجلال فهمي ولا مبارك كول حتى ، و ما يقبله هو "خد" منصاع دوماً ليده الخشنة و شُغل "حمار" طول اليوم ، و العبد لله "حمار ابن حمار" ، و الصفعات لا تلزق !

"مريم" طالبة في مدرسة السلام التجارية ، أبوها موظف في مصلحة البريد ، و أمها ميتة ، و لها أخ واحد في الابتدائية ، معرفتي بها كانت بعد عام من عملي مع الاسطى "حسن" ، و يوم أجازتي (الأحد) أخذت المكنة سراً و ضربت خمسات و حصان أمام مدرستها ، و أنا أمرّ جوارها قالت لي في دلال : " ما انتا شاطر اهو !" ، فقلت مُسرعاً " و أشطر في حاجات تانية" و غمزت بعيني ؛ فردّت بغمزة ميوعة و أدركت حينها أنها "اتشقطت" خلاص ، و حددنا موعداً أسبوعيّاً على فراشها !

لكن أزمة السفالة أنها سافلة بزيادة ، مريم صارت سهلة أكثر من اللازم ، و في هذا النوع من الجنس أنت تملّ الفتاة التي تنام معها أكثر من مرة ، فلا حديث يدور بينكما إلا في إطار الخلاعة ، و حتى أنا الذي لا أعرف عن الحياة أكثر من المكنة و "الشقط" مللت النوم معها ، و كما قال الاسطى "حسن" يوماً : السعي في الحياة كالسير عطشاناً في الصحراء بحثاً عن بئر ، حتى تجده و ترتوي حتى تنتفخ مثانتك ، ثم لا شيء !

تركت مريم أو تركتني هي ، هي أيضاً شعرت بالملل ، أرادت تجربة الجنس مع آخرين ، ربما تندهش لأن تسمع عن هذه القصص في الأفلام الأجنبي ، و لكن لو جئت معي لشوارع بعينها لذكرت لك فتيات بأسمائهن يمارسن الجنس مع أكثر من شاب ، بل و الأدهى زوجات سئمن أزواجهن العاجزين بسبب الترامادول و الحشيش و البيرة الرخيصة !

بعد مريم لم أبحث عن أخرى ، و قررت ادخار بعض الأموال لأشتري "المكنة" الخاصة بي و أتخلص من بذاءة أخي ، الورشة تبعد عن بيتي ناصيتين ، و يوم أجازتي لا أذهب بعيداً ، أتجول ف محيط المنطقة ، و لكن احتياجي للمكنة ليس لأنها وسيلة مواصلات ، هي "أنا"!

هي تنطق و تقول : هذا الفتى في جيبه الكثير من المال ، هو يستحق أن تنظرن له بإعجاب و تمنٍّ ، و إليكم أنتم ، احذروه ؛ فهو كسب ماله من عمله في ورشة خراطة ، فلا مزاح مع فتى ساعداه مفتولان !، حتى الاغاني التي ينطق بها

كاسيت المكنة تعبر عن رجولتي و فحولتي : هذا الفتى ليس رومانسياً "سيس" ، إنه يعود لبيته يجرع بنهمٍ كؤوس البيرة ثم يتجشأ حتى يتعفن الهواء في غرفته ، و لو وجد فتاةً حينها لفتك بها أو فسخّها نصفين !

الآن عندي "مكنّة" !

أدركت أن ما أحصل عليه فُتات لا يُنفّق إلا على فتاة رخيصة كـ مريم ، قنوعة لا تأكل كثيراً و أكثر ما يشغلها "متى نخلد إلى الفراش ؟ " ، لذا كانت نصيحة "عبدينيو " بالسمسرة في الأسلحة فيها الشفا !، كل ما في الأمر أن أحدهم يشتري بعض الأسلحة من الصعيد بثمنٍ بخس ، ثم يبيعها هنا في "مصر" بأسعار مُضاعفَّة ، و لي نسبة من ثمن البيع في كل قطعة ، و المُشترون كُثرٌ !

هكذا و بعد بيع ٤ قطع ؛ كان معي ثمن "المكنّة" !

الطَريف في الأمر أن "سالِم " يستنكر قائلاً : "هذا حرام أن يُقتل أحدهم بسَببك ! " ، حتى "سالم"

يظن أن الناس تموت في مصر لسبب ! ؛ نحن لا نعيش لسبب كيّ نموت لسبب ! و كما يقول الأسطى "حسن" : إحنا جينا الدُنيّا ردّ جميل ، و مشينا مُجاملة ! ، لم أفهم ما يعنيه لكن الحقيقة تظلّ قائمة ؛ نحن نموت .. و بس !

لم أكلّف خاطري أن أسوق لنفسي أسباباً مُرضيّة ؛مثل بيع السلاح للحفاظ على البشريّة ، هم يفعلون ذلك لأنهم لا ينامون إلا بمُسكّن للضمير ، أمّا أنا فأنام من أثر البيرة و رغبات "مريم" المتوحشّة !

المُهم .. الآن صار عندي "مكنّة" !

الآن فقط أطوف على متنها حول مدرسة شُبرا الثانويّة بنات و أعاكس أيّ فتاة مهما كانت "نظافتها" ، الآن فقط أشعر أن فحولتي نقيّة بلا شائبة ، أصليّة ، حتى صوت " في البحر سمكة" تخرج من "الساوند" واثقة غير مرتبكة ، الآن فقط يمكنني المرور بإشارة الخلفاوي دون أن أتلفّت حولي في قلق خوفاً من السؤال : رُخصَّك ؟ ، حتى "مريّم" أدركت أن شيئاً قد تغيّر ؛ صِرت

أكثر امتلاكاً لها على السرير ، حتى كادت مُنبهرةً تقول : " تتجوزني ؟ " ، لولا بقيّة سفالة في ضميرها منعتها !

صار عندي الآن "مكنّة" .. خافي يا منطقة !

تمّت،،



مدام ستافلاسكي

مريضة بالدرن !

السكّير بعد جرعات كبيرة من الفودكا الروسيّة ، غالباً يترنّح و يهذي - مثلما يصورونهم في الأفلام - ، يكتبون له في الحوار ، قُل في بلاهة : "مدام ستافلاسكي مريضة بالدرن ، الكُل في الحيِ يعرف ذلك و لكنهم يُنكرون كيّ لا يلحق بهم الأذى من العُمدة !" ، ثم تنقل الكاميرا ردود فعل روّاد الحانة الغاضبين : " مدام ستافلاسكي امرأة مُهذبة ، كما أن زوجها كان دوقاً نبيلاً ، كيف تجرؤ ! " .

هنا يظهر طفلٌ صغير يندفع داخل الحانة و يقف مُدافعاً عن السكّير : "اتركوه و شأنه ، إن الفودكا مسخت عقله ! " ، و في عتاب مرير يلتفت للسكّير : " لماذا تفعل هذا بي يا أبي ؟ " ، فيصرخ السكّير في عِناد : " مدام ستافلاسكي مريضة بالدرن ، لماَذا لا تحجزونها تحت الحجر الصحيَ أيها المنافقون ! ".

لم يعد أحد يلتفت إليه ، الكُل انشغل بساقيّات الحانة الفاتنات ، و الحقيقة الأخلاقيّة تقول " إذا ما ترنّح جسد أحدهم من الفودكا ، فلا تأخذ بترنّح أفكاره ! " .. إنها الفودكا الفاضحة !

لكن الفودكا لا تمسخ العقل و لا تُشوّه الأفكار ، هي تفضحها دون مواربة ، إذِا كان الدوق فاشيّاً يُسلّط موظفيه على أهل الحيِ يجمع منهم ريّعاً لغير أملاكه و إتاوات كيّ لا يقتلهم ، فبعد زجاجتين من الفودكا و في أقرب ميدان عام ستسمع بجلاء سيرة الدوق القذرة من لسان رجلِ سكّير .

هل الفودكا زيّفت تاريخ الدوق أم أنها أطلقت عنان الجرأة للسان السكّير ؟ ، السجون مليئة بهؤلاء العرابدة ذوي الروائح الكريهة المُنبعثة من أفواههم ، و تاريخهم عبارة عن (جرع الكثير من الفودكا - قتل شريفاً - فضح دوقاً) ، وفي غير أوقات سُكره هو مُسالم مُهادِن لا يُسمع له صوت في الأرجاء و ربِما تراه في مُظاَهرةِ مؤيدة للدوق ، حتى ولو لم يُفرض عليه الانضمامَ والتظاهر .

لكن الفودكا التي ربما عُبئت في أقنعة V لم تعد تسري في دمه الآن ، وما يُمارسه الدوق يُفشي الذُعر في القلوب (العاديّة) ،التي تهفو إلى حُب فتاة مُعافاة من الدرن أو لا يتفجر الدم من

رئتيها كل أسبوعٍ على الأقل ، وسكْن مُريحٍ لا تدفع مُقابله إلا إتاوة عدم الهدم و أجرٍ مُضاعف رَغم أنك ورثته عن جدك .

لكن الفودكا إدمان مرير ، تعرف عواقبه ، سيزجّون بك في السجن ربما مدى الحياة ، و في ثلوج سيبيريا ربما يُنفذون حُكم الإعدام رمياً بالرصاص أو بأن يتركونك عارياً بلا غطاء ، و لن يُنجدك قرار في اللحظات الأخيرة بالعفو ، كان آخر مَن تمتع بهذا الترف هو ديستوفيسكي ، و لست أديباً كي يهتم بك أحد ، أنت مُجرَد سكّير لن يفتقدك أحد في الحانة ، و في الطُرقات سيفقد بعضهم مُتعة سحلك على الرصيف البارد ، حتى يجدون غيرك و ينسون كُلّ شيء عنك .

لكنك تجرع المزيد و المزيد من الفودكا ، تجرع حتى تثمل ، و تثمل حتى تجرع المزيد ، و في الصباح لا تتذكر هل هذا الطفل هو ابنك فعلاً أم مُجرد شريد آخر لم يجدِ سواك ليحتال عليه ، و هل هذه روسيا أم مُجرَد ثلاجة ضخمة بعد

لحظات ربما يسقط على أسقف البيوت كيس
لحم بقريّ .

لا نعرف شيئاً عن الحقائق ليس لأنها نسبيّة لكنها
مدفوعة الأجر ، العلماء ذوو الأجور المرتفعة في
المعامل ذات التكاليف الباهظة هُم فقط مَن
يُقرّون أن الانشطار النووي يُولّد انفجاراً عظيماً
ربما يحوّل روسيا إلى مدفأة بيت ضخمة ، و
الساسة من أنسال القيصر هُم فقط مَن يحكمون
و يُشرّعون القوانين ، و البابا يعيش في القصر لا
يأبه بِمعاناة الأرثوذكس الروسيين ، و يكتب في
الإنجيل ما يحلو له ، لديه ماكينة طبِع باهظة
الثمن ، فلماذا لا يصنع ديناً يبسط سُلطانه في
الأرض !

أنا لا أملك سوى دفع ثمن الفودكا ، أسرق
العُملات من موظفي الجمارك و أفرّ ، و لا أحد
يُلاحقني وسط هذه الرياح العاتيّة ، تلفظهم
للوراء بعُنف كأن الله في السموات يُحذرهم : "لا
تعبثوا معه لأنه ضعيف ، معي الريح العاتيّة ، و
معكم أجساد هزيلة " ، ثم يلتفت لي : "لن

أسلط عليك ريحي لأنك ضعيف ، خُذ العملات و اجرع المزيد من الفودكا و افضحهم ! " .

أهرع إلى الحانة ، أرمي العملات في وجه الساقيّة فتدفع إليّ بزجاجة فودكا باردة ، هي تعرف أنها عملات مسروقة ، و لا تخبر أحداً ، هي نفسها مسروقة ، جاءت إلى روسيا من لقاء حميم في حانة فقيرة ، و لم تدرْ أيّ ذنب اقترفت كي تفتح عينيها على ثلوج بيضاء بطعم الموت ، لم تدرْ أيّ ذنب اقترفت ليكون أول ما تعرفه عن الحياة هو الهلاك و الموت .

كان أول لقاء بأبيها ، هو تشييع جنازته و هي ما زالت في المهد ، أمّا أمها فقد رحلت لتعبث مع آخر و كأن رسالتها في الحياة أن تزيد النسل و تشيع الحرث ! ، هي مسروقة من الحياة ، تعمل في حانة يؤمها موتى أو أشباه موتى ، تدفع لهم الفودكا لتبعث بعض الحرارة في أجسادهم .

لكنها تعرف أن الفودكا تفضح ما بدواخلهم ، بعضهم لا يفعل شيئاً لأن بداخله روح يائسة ، و الآخر ينزع النزع الأخير منذ مدة وملك الموت لا

يهتم ، رجال الشرطة يُسلّون أوقاتهم بين الحين و الآخر ، و لكنها عاقر و هذا أراحها من فكرة الإجهاض لأنها مؤلمة ، هذا يجعلها مثل الرجال ، الساسّة يزنون بهم في كل تشريع و قانون و لا رجل منهم يضع مولوداً ، إمّا يُذعنون بروحٍ يائسة أو يجرعون الفودكا ليلقوا حتفهم في سيبيريا .

أدفع لتلك البائسة بالعملات و أجرع المزيد من الفودكا ، إلى متى سأجرع الفودكا ؟ لماذا لا يقتلونني ؟ ، لا يقتلونك لأنك لا شيء ، أنت لا تبحث عن الذباب و تكلّف نفسك عناءاً لتقتله ، أنت ذبابة بلا ضجيج ، لهذا لا يقتلونك ، وجودك أرخص من طلقة رصاص روسيّة ، التاريخ لا يذكر أمثالك ، أنت في التاريخ مثل أنبوبة اختبار في معمل أحياء ، لست عينة تحليل و لست عالماً ، بل لست وهجاً يُساعد على التفاعل ، أنت أنبوبة اختبار ، لتنفجر أو لتنتظر دورك لتجرع بعض المحاليل ، أنت مُجرَد زُجاج مُجوّف !

أفرّ رغم ما تفعله الفودكا برأسي ، رغم أن لا أحد يلاحقني فالريح العاتيّة تعوقهم و الله في

السماوات يؤدي دوره في حماية الضعفاء ، أتأكد من إحكام قبضتي على العُملات ، أنظر ورائي فلا أرى أحداً و الريح قد هدأت ، أتجه نحو الحانوت في ثبات ، أدفع له بالعملات ، و أطلب منه أن يُصوّب جيداً ، في روسيا ليس الأمر غريباً أن يطلب منك أحدهم هذا الطلب ، الرجل يُصوّب و يُحكم إصبعه جيداً ..

مدام ستافلاسكي مريضة بالدرن و الدوق ليس شريفاً و الطفل ليس ابني و الساقيّة عاقر .. و

الرصاصة ليست أغلى من وجودي !

تمّت،،



باسم أبو المجد

"لقد كتبها العظماء .. فكيف تكون مُزحّة ؟! "

راسِم أبو المجد - شتاء ٢٠٠١

دعني أحكي لك عن نفسي ،لأن الأحداث القادمة جميعها لن تصدقها إلّا إذا عرفت عني شيئاً زهيداً حتّى ، و سأكون صادقاً فيما أروي عن نفسي ، لن أجعل من نفسي زنجياً كيّ أبدو كمارتن لوثر كينج ، و لن أدخن السيجار لأقنعك أني جيفارا المصري !

وُلدت في أسرةٍ متوسطة الحال ، في البنك مبلغ من المال لا يكفي لشراء سيارة محترمة و لا شقة في المعادي ، و لن نهدره على سيارة فيات أو شقة في المرج ، هذا هو حالنا في كل شيء ، نحسد الأثرياء و نلعن همجية الفقراء ، و نحن في المنتصف بينهما ، و مع الوقت نميل إلى الفقراء رويداً رويداً ، فأبي قد أُحيل إلى المعاش ، و إخوتي

الصغار يلتهمون المال بجشعٍ ، و لأني قد تخرّجت من التعليم الجامعي ، و لم أجد وظيفةً مناسبةً بعد ، فقد تخرجت في كلية الهندسة قسم الاتصالات ، و كل ما أجده ينحصر في **Call Center** أو **Sales** ، هذه ليست وظائف مناسبة ، أهتم بصفة الوظيفة ولا أكتفي بكونها "وظيفة" ، لم أرهق نفسي طيلة سنوات الكلية لأوظف طاقتي في مكان يجمعني بطالب تجارة فاشل لم يذاكر إلا أربع ساعات طيلة العام كله !

من هنا تبدأ الأحداث ..!

طال انتظاري للوظيفة ، موبينيل فجأة اكتفت من مهندسي الاتصالات ، و فودافون أعلنت أن خريجي تجارة هم الأنسب لها ، دعك من اتصالات لأنها تطرد مَن لديها أصلاً ، و بدأ اليأس يطرق الأبواب كالإدمان بالضبط ، يبدأ الأمر بـ"

أكيد هناك ما ينتظرني " ثم " لقد طال الانتظار !
" ثم " لابد من تقديم تنازلات ليقل الانتظار " ثم
..
لم أكن أعرف أن وظيفة **Call Center** مريحة
لهذا الحد !

****

الوظيفة مريحة و أجرها مُجزٍ ، خاصةً أني أتحدث الإنجليزية بشكل ليس رديئاً ، مرتبي بلغ ٢٠٠٠ جنيهاً بعمل ٨ ساعات يومياً ، و كنت أعود لأبحث في وظائف شاغرة لمهندسي اتصالات ، و في صباح يوم الأربعاء و أنا ذاهب للعمل ، وجدت إعلاناً في شركة راية يطلبون مهندس اتصالات حديث التخرج بمرتبٍ مُجزٍ ، و ذهبت للعمل و طلبت أجازة كيّ أتمكن من الذهاب لراية و عمل **Interview** ، و ذهبت بالفعل و لكن الأجر كان ٨٠٠ جنيه !

تمكن اليأس مني تماماً حينها ، هل وظائف المهندسين بعد شقاء ٥ سنوات في تعليمٍ قاسٍ مميت ٨٠٠ جنيه ! ، هل هذا ما نحصل عليه بعدما حصلوا على عظامنا ذاتها في الكلية ؟!

و يوم السبت ، أذهب للعمل و كان زميلي في الغرفة - يُدعى " محمد صلاح " - قارئاً جيداً في العلوم الإنسانية ، و كان في حقيبته كتاب وصفه بالرائع عن كيف تجد وظيفةً تلائمك و تحقق النجاح الذي تتمناه ، و استعرت الكتاب منه و قرأته بعد العودة للبيت ، هناك كلما قد تمر عابرة أمام ناظريك لأنها لا تعنيك ، لأنك لا تبحث عنها ، و لكني الآن أحتاج هذه الكلمات ، أريد هذا الفارس المغوار الذي ينقذني من الرخّ ، "حِب ما تعمل حتى تعمل ما تحب " ، لا ضير أن أعمل في وظيفة لا أحبها ، لأنها حتماً ستؤدي بي لوظيفةٍ أحبها ، إنها مهارة توظيف الانتظار ، لن أنتظر الوظيفة و أنا أحصي النجوم في السماء ،

لابد أن أفعل شيئاً حتى لو كنت أكرهه ، سأحبه كونه وسيلة لوظيفةٍ أفضل .

" قد يطول انتظارك ، و لكنك حتماً ستحظى بالوظيفة الأنسب "

ذكرها أحد العظماء .. فكيف تكون مُزحة ؟!

الآن أتجاوز الرابعة و العشرين ، مرّ عامان و أنا ما زلت منتظراً ، كنت أقرأ عن الوظيفة التي حتماً ستأتي ، قرأت " العادات السبع للطرق الأكثر فاعلية للنجاح " و " كيف تنظم حياتك " و " كيف تتجاوز أزماتك " ، هذا كله كان أشبه بالصوم للشاب العاجز عن الزواج ، و لكني ما زال الصيام لا يُغني عن الزوجة !

الآن أتجاوز السادسة و العشرين ، لم أذكر لك أن
مرتبي صار ٦٠٠٠ جنيهاً ، هذا لا يُهم ، لم أعمل
بالوظيفة التي أحبها بعد ، لديك الشقة و لكن لم
تقابل الفتاة التي تفتنك إلى الآن ، نسيت أن
أحدثك عن العاطفة في حياتي ، لست اجتماعياً
فلم اختلط بفتاةِ طوال فترة دراستي ، و لم تلفت
إحداهن نظري ، و لا أرى الزواج ضرورياً ولا
الحب نفسه ، هذه أشياء تأتي بعد الوظيفة ،
المهم .. الوظيفة !

الثامنة و العشرون ، الآن صرت مديراً على عدة
موظفين ، عملي صار أبسط و أسهل ، مرتبي يزيد
كقطِ سريع النمو ، و في مساء يوم الجمعة بينما
أطالع جريدة الوسيط ، أجد وظيفة شاغرة
لمهندس اتصالات بفودافون !

الآن أفعلها !

و في Interview مُرعِب ، أدركت أني لم أعد أتذكر شيئاً عن الهندسة تماماً !

الرابعة و الثلاثون ، متزوج و لديّ طفلان ..

الثالثة و الخمسون ، طفلي الأول يتخرّج في كلية الطب ..

السادسة و الخمسون ، طفلي الأول عاطل عن العمل ..

الستون ، طفلي الأول مسئول مبيعات سوبر ماركت مترو فرع مصر الجديدة ..

الحادية و الستون ، أؤمن أن العباقرة قد يمزحون كثيراً ..

" حِب ما تعمل لأنك لن تعمل ما تحب "

راسم أبو المجد - ضحيّة كتاب خياليّ !

تمّت،،



سرادق عبث

يعدُ البعضُ أنّ عدمَ مرضك بالسرطان ، وغيابَ الخنجرِ تحت ذقنك ، وعدم اشتعال بيتك ، ظروف يمنحها الله لعباده كي يكونوا الأفضل !

إن الأزمة بدأت حقيقةً مع بزوغ القمر ، حينما سمعت همهة عالية .. لا .. ليست همهمة، بل حشرجة، ثم تعالت بسعال حاد يكاد يقطع نياط الحنجرة - إن ملكت نياطاً أصلاً !- فأفزع لحجرة جدي المجاورة لحجرتي؛ فإذ به يذود عن صدره ويدفع كل ما يستوقفه، ثم ينظر لأعلى و ..

مات، فلا داعي للتفاصيل ،كان حياً ثم مات،كان موجوداً ثم غاب للأبد عن عالمنا ليذهب لعالم آخر لا نعلمه وسيعلمه هو ولن يخبر به .

الأمر لم يكن بهذا البساطة ،بساطة اللفظ : موت ،كل حرف يحوي كارثة ،كارثة معنوية،كارثة اجتماعية،كارثة مادية.

وفي السرادق جاء المنافقون من كل حانة ، ونحتوا الأسى على وجوههم، ومد كل منهم يداً ملوثة بتوقيعات لاستدانة جدي ،الحبر لم يجف بعد

ولسان المحاميين خاصتهم لم يقف إلى الآن طلباً لحقوقهم المزيفة من جدي، ونواح أمي يصم أذنيّ ويفجر رأسي كل يوم كالأقرع بالقبور ،أن أتحرك لأنقذ العائلة،سحقاً للعائلة ،سحقاً للشيطان !، سحقاً لجهنم ذاتها !

وبعد مرور أيام النفاق ، أجلس للرويبضة التي تحيطني، أبث همي لعقول عجفاء .

****

جلس باسم جلسته الشهيرة ، يضع يديه بين فخذيه ويطأطيء رأسه ، كفتاة نعرض عليها الزواج ، ولم يرفع رأسه حتى ليقول: لا أعلم .. لكن أعتقد أن موته خير له ..وربما نهاية لوحدته .. لا أعلم.. الموت شيء قاسٍ بغيض .. يسلبك كل حلم .. كل .. كل أمل .. لكنه يدعك لقبر .. قبر أقل ضيقاً من الدنيا .. ربما الأمر سواء .. وربمـ .. لا أعلم ...لا أعلـ...

- هههه .. ما بال لعثمتك يا فتاة ؟؟

قالها أسامة الشاب الذي يضع جمة طبيعية فوق فروة رأسه ، ويتباهي بكميات الجيل التي يضعها ، ولا ينسى فخره ببنطاله الذي يكشف عن أخدود مظلم كريه قذر ، ولا بصدره المشعر التي تزينه سلسلة ضخمة يتشبث بها موسي وفلاش ميموري واسطوانة ليزر - كاد يعلق حافلة لكن المكان ضيق !- .

قالها في مجون أبي لهب في حانة الخمر بقريش واستطرد:

- موت؟؟ الرجل كبر في السن وخيراً له أن يتعفن في مكان ناء ، أن يلوث غرفته ! ، ماذا تتوقع غير الموت لمن جاوز السبعين ؟ لن يحصل على الميدالية الذهبية لأولمبيات بكين إن أردت له هذا !

فيقاطعه قاسِم في غضب و... لا أعلم.. لكنه حينما يتحدث يخلط عليك السواد بالكآبة وربما بالكفر ، وربما تلفتك لحيته النامية كمساجين طرة وشعره المنكوش كالذهانيين أن تتوخى الحذر من هجمة شرسة وقطع عنق !

صرخ في غضب ،ميزت هذا من احمرار وجهه وهو يقول :

ليمت من يمت ،وليذهب للجحيم من يريد ، الكل سواء ،الكل تحت ظل اللعنة ،سنفرّ منِ لعنة للعنة ،الكل يموت، الكل لا يستحق، ومَن يستحق يموت لأنه عاش بعالم لا يستحق، ومَن لا يستحق يموت ؛لأن هناك بعض الفضيلة متوارٍ في ركن ظليل تتخلص من أمثالهم ،ليذهب الكل للجحيم أو للجنة فالأمر سواء ، فلن يزيل هذا الغم والنكد أي حورية ولو كانت تشع نوراً ،ولن يزيد الهم والحزن نار موقدة ولو كانت تشوي الجلود ببخارها !

****

وبعد سبع سنوات، ربما أكثر، فالوقت سواء هنا ، وكأس الخمر لا يُفضي إلا لكأس .

أجلس، فتقترب فتاة مني وتبتسم في غباء ،فأنظر لها مشفقاً : هل أنام معكِ كعربيد لا يرى قبالته إلا شهوته أم أزهدك كصوفي متعبد على قمة جبل

أتته امرأة بغاء ؟ .. سواء .. فجدي مات، وأمي ماتت، هم حمقى ربما أو ربما يستحقون الحياة، وقاتل الجميع لأجل مال جدي، هم للجحيم ومن الجحيم، فلا معنى للفضيلة ،والخير والشر سواء ،كلاهما يفضي للعبث، حتى هذا الكأس مثله كركعتين في جوف الليل، كلاهما يلهي عن مرارة العيش،وكلاهما نهايته العبث، فلن يزيل هذا الغم والنكد أي حورية ولو كانت تشع نوراً، ولن يزيد الهم والحزن نار موقدة ولو كانت تشوي الجلود ببخارها !

تمّت،،

-3-

بحثاً عن زوجة ..!



جميل عازر



الكل يتلفّت حوله في ترقب ، النساء في أبهى زينة ، والحلى تتدلى من الآذان وتلمع تحت أضواء المسرح المبهرة ، والرجال جوارهن يهمسون عن القادم المرتقَب .

ومَن القادم المرتقَب ؟

إنه "جميل عازر" الأديب الأريب ، الذي كتب روايته الأولى وحصد على إثرها عدة جوائز بدبيّ وبيروت ودمشق ، ثم اختفى طويلاً ، وخرج بروايته الثانية يروي تجربةً شخصيةً ، الكل ها هنا ينتظر في حفل توقيع الرواية ، ينتظر دموع الرجل أو ضحكته الهيستيرية ، فالمعظم لم يقرأ الرواية أصلاً ، لكن هناك شيء يخص حياة الرجل - ولو لم يكن ذا شأن – لابد أن نعرفه ، الفضول داخلنا .. الوحش الجائع النهم دوماً للمعرفة ، لهذا كان معظم الحضور من النساء ، خاصةً و أن ما قِيل أن تجربة الرجل كانت رومانسيّة .

ومن مكانٍ ما يخرج "جميل" يرتدي بنطالاً رمادياً مخططاً بخطوط كُحليّة ، وقميصاً واسعاً أسود ، الرجل لا يعنيه الأناقة التي تتسم بها القاعة ، ولا

أهمية الحفل ولا الحضور ، شعره المنتفش يوحي
بأن الرجل لم يواجه مرآة من قبل .

الحضور بصدد رجلِ لا يعنيه المظهر في شيء ،
مسحة العبقرية تلك التي رأيناها في حُلّة
أينشتاين ، هذا رجل مهمومٌ بأفكاره أو زهد
الحياة تماماً .

كان هذا هو الانطباع الأول عن الرجل الذي جاء
ليخالف أي معنى لاسمه "جميل" ، رَغم وسامة
لم تخفها كل الفوضوية في مظهره .

يرتقي الدرج المؤدي لخشبة المسرح في هدوء
أوحى للجمهور أن الرجل إنسان آلي مُوجه
بريموت كنترول ، يقف قبالة الميكروفون ، يقف
صامتاً للحظات وسط صمت الجمهور المترقب، ثم
تخرج الكلمات مرتبة منمقة من حنجرته ليقول :

"يبدو لنا نحن الأدباء أن الحياة تعجّ بالقصص
والروايات ، نحن فقط نتكاسل عن التدوين
والملاحظة ، وقد تأخرت روايتي الثانية كثيراً لأن
حياتي لم تحو شيئاً ذا بال ، حتى ... "

ويصمت .. ينكس رأسه قليلاً .. يرفع رأسه نحو الجمهور بعينٍ شاردةٍ و ...

****

طالباً في كلية الآداب جامعة عين شمس ، واظبت على الحضور على غير عادة طالبي هذه الكلية ، و كانوا يطلقون عليّ " اللزج" كوني لا أترك مدرساً إلا و أمطرته بالأسئلة و النقاشات الأدبية ؛ حول الصراع بين مدرسة المهجر و مدرسة المحافظين ، و غيرها من الإشكاليّات ، و كان المدرسون رُغم غزارة أسئلتي يحبّون مناقشتي ؛ ذلك أن لا أحد يهتم بشيء إلا قصّة الشعر و بنطال الفتاة الذي يكشف عن كل شيء .

و كان سمتي في تلك المرحلة الهدوء و العزلة ، فوقت الراحة بين المحاضرات كنت أمضيه وحدي في المدرج ، أطالع روايةً لديستويفسكي أو كتاباً لرشاد رشدي عن فن الكتابة الأدبية ، لم أرافق أحداً طيلة سنتين ، و كنت لا أتبادل سوى إجابات حول مواعيد المحاضرات أو غيرها من أمور الدراسة لا أكثر .

حتى التحقت بمسرح الكلية و كتبت لهم نصاً مسرحياً يدور حول الموت و كيف يُنظر له بين العقائد المختلفة ؛ كونه مخلّصاً للروح من سجن الجسد ، و بين كينونته كجسر للخلاص الأبدي من الحياة و متاعبها ، و كونه غاية الحياة أصلاً بالكشف عن غموض الآخرة .

و قد نال النص استحساناً كبيراً ، و كان يوم عرضه مهيباً إذ أنتظر رأي الجمهور فيما كتبت ، و مع التصفيق نهاية الحفل ازددت ثقةً بنفسي و أملاً في المستقبل .

و بعد الحفل كان لقائي الأول بـ " يارا " ، كانت ممثلة في المسرحية تقوم بدور زوجة كاهن في التبت ، كانت فاتنة بالنسبة لي مَن لم يهتم يوماً بفتاة ، كان شعرها أسود فاحماً ينسدل على كتفيها ، و عيناها خضراوتان تجذبان روحك .

كان لقاءاً سريعاً ، تبادلنا فيه التهاني بنجاح المسرحية ، و شكرتها على أدائها البارع ، و بادلتني المجاملة بأخرى ، و انتهى اللقاء بسؤالها

عن أعمالي القادمة ، فاكتفيت بأن تتمنى لي التوفيق لا أكثر .

لا أنكر وقتئذ أن العزلة تسربت لكثير من جوانب حياتي ، حتى أنستني كيف أنفتح إلى الناس ، و حينما تذكرت لقائي بـ"يارا" شعرت أني كنت جافاً خشناً ، و تمنيت فرصةً أخرى لأجمّل صورتي لديها .

و لم أنتظر كثيراً ، إذ جاءتني في المدرج بعد انتهاء المحاضرة ، و استأذنت أن تجلس ، فأذنت لها بابتسامة و جلست ، أخذت تتحدث عن نفسها و عن عشقها للتمثيل و الأدب الروسي ، و أنا أنصت لها في متعة ؛ إذ أن عزلتي كانت بين الكتب و أكثر ما أَخذني هو الأدب الروسي ، شعرت أنها جانبي .. نحن وحدنا ضد هذا العالم الغبي المتجاهل للفن .. أنا أكتب لها و هي تؤدي ما أكتبه .. أنا أخلقها و هي تتحرك .. تتحرك على وقْع نغماتي وسط نهيق الجمهور حولنا .. أنا و هي .. وحدنا نعزف و نرقص و نغني ..

" أنا أحبك ! "

هكذا انطلقت من بين شفتيَ بلا إرادة ، و هكذا استقبلتها بابتسامة حياء ، و هكذا خرجنا من المدرج متعانقي الأيدي حولنا هالة حبٍ ترعانا .

****

الجمهور بدأ يضجر ، بينما "جميل عازر" يقف ساكناً كصنمٍ ، فينادي عليه مُنظم الحفل ؛ فينتفض "جميل " من غفوته و يعتذر للجمهور قائلاً :

" يبدو أن القصص تداهم عقلي الآن "

فيبتسم الجمهور ، و يستطرد "جميل" :

" سأحكي لكم لماذا توقفت عن الكتابة طيلة هذه الفترة "

و ترتعش يداه .. و يحكي ..

****

" كان زواجنا يوحي بحياة رائعة ، كاتب نجحت روايته الأولى يتزوج من ممثلة مسرح بارعة .. و انقضى العام الأول من زواجنا ، و أنا لا أحتمل

فراقها لحظة ، و كذا هي ، حتى أُضطرت لرفض عروض عمل لمسرحيات كانت تود أدائها .. لكنها لن تتركني لتسهر في بروفات تمتد لساعات طوال ..

كانت ابتسامتها أول ما أرى من يومي ، فأنهض متكاسلاً فأجدها تغني لي أروع ما غنت فيروز "كيفك إنتا" ، كان صوتها رخيماً حانياً ، كأن نغماته تحتويك و تطير بك بين السحاب ، و أنهض مستجيباً لغنائها و أتلقفّها بين ذراعي و أطبع على شفتيها قبلةً ، فتبتسم و تسحب يدي إلى الصالة حيث أعدّت الفطور .

كان حديثنا على الطاولة يدور حول الفن و آخر ما عُرض في هوليود ، و كان نقاشنا هادئاً إن اختلفنا ، فقد ألححت عليها أن تقبل بعرضٍ لأي مسرحية ، و سأكون سعيداً برؤيتها على خشبة المسرح مجدداً ، لكنها تنهض من جلستها و تقترب و تجلس على حِجري هامسةً : لن أتركك إلا نائماً للقاء في الحلم .

هكذا كانت " يارا" قبل أن ننجب " أدهم" !

كان " أدهم " جميلاً كأمه ، و شعرت بأن أميراً قد حلّ بالمنزل ، هو ابن الأدب و الفن ، باسمه يُخلّد الجمال .

و اهتمت به " يارا" و لكن الطفل كأي طفل ، يصرخ كثيراً كأن شيطاناً ينازعه جسده ، يمرض كثيراً كمَن قضى عمره في مستنقع ، و بين الصرخة و الأخرى يبحّ صوت " يارا " منهارةً ، و أبتعد أنا إلى ركن أواصل كتابتي ، و بين مرضٍ و الآخر تسوّد عينا " يارا " و أبتعد أنا أكثر .

اعتقدت أن قلب الأب لا يجتمع و قلب الأديب ، فالهدوء هو مسكن الأديب ، و هو مسكن لا يحب صراخ طفل و لا اعتراضات زوجة !

" يارا" بدأت تعترض ، الإرهاق العصبي كاد يدفعها لخنق " أدهم" أو دفنه حياً ، و أنا لا أجيد شيئاً مما تفعله و لا أحتمل صراخ الطفل و لديّ أعمال أكتبها !

و سنة تلو الأخرى و "أدهم" يهدم في بيتنا بمعول ، و يحول بين شفتينا بمرضٍ أو صراخ وسط الليل ،

و يحول بين هدوئنا باهتمام "يارا" به و تلبية رغباته !

و فِي ليلةِ نام الطفل هادئاً ، و كانت " يارا " راقدة علَى فراشها مرهقة ، أقترب منها و أطبع على شفتيها قبلة ، و إذ بها توليني ظهرها و تقول مقتضبة : مرهقة و أحتاج للنوم !

فاحت منها رائحة الثوم و البصل ، و أثقل الفراش فخذاها المترهلان ، و علا صوت شخيرها عالياً .. أدركت أن "يارا" قد ماتت .. قتلها " أدهم " !

****

يوجه "جميل" ناظريه للجمهور و يردف :

" وقتها توقفت عن الكتابة .. فالهموم تدفع الأفكار إلى رأسك مشوهة .. تدفع مسوخاً تطارد ملائكةً تتشبث بحقها فِي المكوث داخل قلبي .. مسوخ ناقمة و ملائكة طيبة .. شيطان يوسوس و ملائكة تُذكر بأيام الخوالي .. هذا كله لا يخلق يداً ثابتة تُمسك قلماً يخط شيئاً واضحاً .. و قد زاد

هذا الطين بلة .. فلا حياة هادئة ولا رواية أهرب إليها ..

ترسّخ داخلي أنه لا بد من البحث عن "يارا" أخرى ، ليس هروباً و لكنها حياتي التي لا تستقيم بصراخ دائم و زوجة بدينة تحوّل حديثها للطماطم و كيفية طهي البامية ، حياتي التي أود استردادها كي لا أنتحر أو أموت من صوت شخيرها المزعج !

و كان اللقاء بـ" يارا" أخرى ..

****

راقصة باليه ممشوقة القوام كتمثال عاجي لرودان .. رقة صوت كجوقة لأوبرا ستراوس .. و الأجمل من هذا كله : تعشقني حتى الثمالة ! التقت نظراتنا مع أول عرض باليه ظهرت فيه كراقصة بارعة شحذت القلوب قبل العيون .. و بعد العرض قدمها صديق لي إليّ باعتباري أديب كتب رواية لاقت نجاحاً .. و لما عرفت أني من كتبها صاحت منبهرة : أنت عبقري !

و دعوتها للعشاء في فندق فور سيزون .. و تلاقت
أفكارنا و ميولنا .. و انعقدت صداقة لم تدم
طويلاً حتى كانت في أحضاني في غرفة بالفندق
نفسه نتبادل القبلات كجائعين مرّت دهور لم
يذوقا فيها الزاد !
كنت جائعاً للفن .. للحب .. و شفتاها كانت
كخيال فيرجيليو لدانتي .. ملهمة مرشدة ..
رعشتها بين ذراعيَ هدّت ذكريات زوجتي البائسة
.. بثّت الأمل في مخيلتي أن أسوّد ألف رواية ..
رواية عن غمضة عينيها لمّا أضمها بقوة إلى
صدري .. و أخرى و هي تداعب خصلات شعري
بيد حانية .. و أخرى و أنا أتلمّس وجنتها
الحريرية ..
و كانت ليلتنا الأولى .. و في الصباح الباكر تثاءبت
في دلال ثم لثمت شفتاي في رقة .. و همست :
سأتركك جسداً و لن أفارقك قلباً .. فقط لا تنس
أن نيرفانا تسري في روحك ..
عدت إلى داري مفعماً بالأمل .. فلم أعر اهتماماً
لتلك البدينة المعبقة بالبصل و الثوم .. و لم أعبأ

بهذا الشيطان الصغير الذي لا يتوقف لحظة عن الصراخ ..
دلفت لحجرتي و أحكمت إغلاقها .. و أخرجت أوراقي و أمسك بقلمي العزيز و....
لم أكتب شيئاً !
كانت نيرفانا تسيطر على أفكاري .. و كلما بدت لي فكرة ناضجة للكتابة .. تبهت و تشرق صورة نيرفانا و هي بين ذراعي ناعسة ..
و لكن لم أبد انزعاجاً .. الفكرة آتية لا شك .. أنا مهيء تماماً لها .. فقط هي نشوة الحب و ذروته تعبث بسرائري .. لأؤجل الكتابة لحين أستفيق ..

يوم الخميس .. يوم عرض نيرفانا في دار الأوبرا .. أذهب متأنقاً كـ سير إنجليزي .. و أشاهدها أمامي تمد قدميها لأعلى في سعادةٍ ثم تتحجر عيناها على السماء .. تنحني في لحظة انكسار حزين .. و تعلو هامتها في تمرد و إرادة ..ثم تهرول بخفة نحو حبيبها الذي يمد يديه كالغوث للغريق .. و إذ به يكشّر عن أنيابه و هي على مقربةٍ منه .. فتنزوي على نفسها كقوس .. و

تهرول مبتعدة فزعة .. ثم تسترق الخطوات على أرجاء المسرح باحثة عمن ينجدها ..
سرحت بخيالي .. هي تبحث عمن ينجدها .. و إذ بي أقحم نفسه في العرض الخيالي فأتلقفها بين ذراعيَ و أطمئنها بقبلات حارة تهديء ما بروعها ..
و انتهى العرض الحقيقي .. و لم تمض دقائق حتى كانت معي تصطحبني لغرفةٍ بفندق هيلتون رمسيس ..قائلة في رقة : أنتَ اليوم أميري و أنا خادمتك .. بما يأمر أميري ؟
فأرد عليها و أنا أضمها إلى صدري : أن تقبل الخادمة ترقية أميرها لتصير ملكته !
فتهمس في عذوبة : إذن أيها العبد .. اسقني من خمر شفتيك حتى الثمالة ..
و ليلة تلو الأخرى .. و محاولة بائسة للكتابة تلو الأخرى ..
و في ليلة .. و بينما نيرفانا تحتضن يدي و تلثمها .. أقول لَها :
" سأعتزل الكتابة و أحترف عشقك "
و تصمت ..

****

كتبت رسالتين .. الأولى لزوجتي أطلقها ثلاثاً .. و الثانية لدار النشر أعتذر لهم أني اعتزلت الكتابة و سأرد لهم أموالهم ..

و اتصلت بـ" نيرفانا" مبتهجاً .. قد تخلصت من قيودي حبيبتي .. اليوم أسجد من جديد لإله الجمال بعد كفرٍ طال .. اليوم لن أختلس القُبلة .. ستكونين زوجتي .. و ..

ترفض !

قد عشقتني أديباً ، و يوم اعتزلت الفن صرت كغيري عندها ، شفتاي من أديم الأرض .. كلماتي من حروف الناس .. هي ترقص و أنا أرقب كغيري .. لا أبادلها الرقص .. لا أبادلها الفن !

لم أعد أديباً .. لذا هجرتني "نيرفانا "..

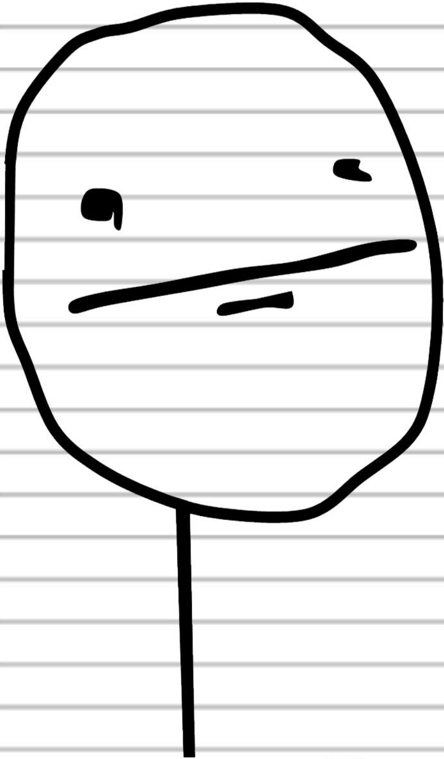
****

يقول " جميل" وسط صمت مشحون بمشاعر الأسى :

" و قد حاولت الكتابة ، عجز قلمي عن الخطّ ، لا فكرة سوى ابتسامتها ، و لا حبكة غير عناقي لها ..
حاولت الاتصال بـ" نيرفانا " مجدداً .. لكنها وسط قبلات تبادلتها مع عازف جيتار في فرقتها ،
أوجزت : لا تتصل مجدداً !
حاولت العودة لـ" يارا" ، لكن إلى مَن أعود ؟
لصراخ طفلٍ و شخير امرأة !
وسط هذه الهموم .. وجدتِ فكرة روايتي هذه بين أيديكم .. بها أيقنت إلى مَن أعود .. بها عدتُ إلى فنّي .. إلى كراهية "نيرفانا" و الحسرة على " يارا" ..
أنا " جميل عازر" الذي بحث عن روايته بين ذراعي " يارا" و على شفتيَ " نيرفانا" فـ ضلّ الطريق !
التجربة الفاشلة وحدها ما يصنع الأديب !"

تمّت،،

كيف صرتُ شاذّاً؟!



لا أعرف من أين أبدأ ، الفكرة واضحة تماماً لديّ ، سأتحدث عن الحب ، وجهة نظري شرحتها مراراً لذا فليس من الصعب أن أشرحها الآن ، و لكن مِن أين أبدأ ؟!

البداية كانت أن الحب ربما يأتي قسراً ، أن تُقنع نفسك أن هذه الفتاة رائعة حقاً ، صوتها دافيء وكلماتها رقيقة ، مثقفة بعض الشيء ، أنت لن تتزوج سميرة موسى ، و لكنها ليست خادمة فلبينية كذلك ، يمكنها أن تنصت و توحي لك أنها تستوعب ما تقول ، هذا ما تحتاجه في زوجتك حتى لو لم تفهم عنك حرفاً ، على قدرٍ من الجمال ، خلوقة مهذبة ، فلماذا لا تحبها ؟!

الحقيقة أني بعدما تجاوزت الثلاثين أدركت أن زمن الحب قد مرّ فعلاً ، جهاز العاطفة داخلي صار موظفاً ملولاً ، لتتزوج و دعك من هواتف منتصف الليل و همسات الغروب عند الكورنيش ، لتختصر هذا الزمن الذي لم يعد يليق بسنك ، مَن هم في سنك الآن يعدون أطفالهم بنزهة إذا نالوا درجات عالية في الابتدائية ، جهاز العاطفة

لديّ لم يعد مهذباً ، الحقيقة أنه لم يعمل من قبل !

نعم لم أحب فتاةً من قبل ، حتى "مرام" زميلتي في الكُلية كنت أميل لها ، و لكن مثلما أميل لصديقٍ عزيز وقت الأزمات ، لم أشعر أني بحاجة لرؤيتها ، كان هذا هو معيار الحب لديّ آنذاك ، لذا بعدما تفرّق الشمل لم أسأل عنها و لم أعرف عنها شيئاً ، ربما تزوجت و صارت مجنونة تصرخ في أطفالها ليلاً ليناموا و صباحاً ليستيقظوا .

الآن تجاوزت الثلاثين ، بدأ الاحتياج لزوجة و بيت و أسرة ، هذه أمور لا تخصّ جهاز العاطفة ، بل جهاز العروسين ، و مادياً لست فقيراً و يمكنني أن أجدد شقتي كاملةً ، و لكن جهاز الإنسان تحت جلدي ليس راضياً عن الوضع ، أبعد هذا العمر أتزوج بهذه الطريقة ؟!

الحقيقة أن عمري كله أمضيته إمّا في الدراسة أو العمل ، نعم كان لي نشاط خيريّ أثناء الجامعة ، و لكنه نشاط يخص عاطفة الخير لديّ و ليس حب الفقيرات الفاتنات ، لم أجد ما يستفز جهاز

العاطفة ، لم أجد هذه الفتاة الفاتنة التي .. التي لا تفعل شيئاً سوى أنها هي التي أحبها ، أسباب الحب قد تتواجد حولك بكثرة ، الثقافة ، الرقة ، الجمال ، النسب ، و لكنك تنتظر هذا السبب الذي يبحث عنك ، الذي يجعل زوجتك هي توأم روحك فعلاً ، هل سأجده قبل أن يجدني الموت و يكون الأقرع توأم عظامي ؟!

و تزوجت ، تزوجت قسراً ، لا لم تمارس أمي القهر ، لأنها مشغولة الآن بما يحدث معها في عالم الغيب ، أبي كذلك لا يهتم ، فهو مشغول بما يحدث مع أمي منذ وفاتها ، و ظل يقرأ في كتب عذاب القبر و يتصدّق لأجلها حتى كاد يكتب خطاب استعطاف إلى الله ليغفر لها ، أب كهذا لا يعنيه أن ابنه سيتزوج ، الحياة الدنيا ترف و لهو ، ربما يهتم إن أقمت زفافي في مقبرة مجاورة لجثة أمي !

لكني أحتاج زوجة بالفعل ، أعود للبيت وحيداً ، و أجلس أمام التلفاز مشدوه النظرات ، أعدّ طعاماً محروقاً أو نيئاً ، نعم أحتاج خادمة فلبينية

بلا أجر ، أدفع لها حباً و تقدم لي استقراراً ، حتى
جهاز العاطفة داخلي لم يعترض ، هو يعرف كم
صار حالي مزرياً ، و قد تنازل عن توأم الروح كيّ
يبقى الجسد !

"ساميّة" نحيلة قمحية البشرة ، هادئة في حديثها
، متوترة في عمل البيت ، لابد أن يبقى كل شيء
نظيفاً حتى الأبد ، لحظات التلوث هذه نهاية
العالم بالنسبة إليها ، لطيفة المعشر ، تنصت جيداً
، و لكن بارانويتها الزائدة في تنظيف البيت
جعلتني أشكّ أنها تعيش لتنظف ، ولا تنظف
لتعيش ، أحياناً أشعر أني "شيء" ألوّث لوحتها ،
أجلس على الأريكة ، و أقوم فتهرع لتنظف موطأ
جلوسي و كأني حذاء بشريّ ، حتى في أخصّ
لحظاتنا الحميمية كانت ترتب الفراش كثيراً و
تنتظر حتى أنتهي من الهُراء خاصتي ؛ لترتب
الفراش من همجيتي ، لقد تزوجت مكنسة !

حتى حينما تنصت ، تنصت بلا مقاطعة ، ثم
تسأل في تفاصيل من نوع " هل كنت تركب
الأتوبيس أثناء مقتل الرجل بليزر غزاة الفضاء أم

كنت مترجلاً ؟! " ، كانت حريصة أن تكون الصورة كاملة بكل تفاصيلها ، لم أكن مهملاً من قبل ، و كنت أرتب أوراق عملي جيداً ، و لكني لا أقدس أوراق عملي كذلك !

كانت خادمة جيدة ، تمنيت أن أدفع لها كّ أحدد لها ما تنظف و كيف تنظفه و متى تترك كل شيء لقذارته ! ، و لكنها زوجتي التي تركت لها - مغفلاً - مفتاح الشقة للأبد ، و منحت لها سلطة التنظيف !

لست تافهاً أو خائناً ، لكني طلقتها ، و ثلاثاً كيّ لا تفكر في التفاصيل !

نعم تنازلت عن مبدأ توأم الروح لأستقر ، و لكن أيّ استقرار مع حملات تنظيف دقيقة كل ساعة ! ، هناك بعض القذارة لابد أن يتواجد حولنا ، لابد من عبثية ما تتداخل مع حياتنا ، عبثية لا تهدم الاستقرار ، و تمنع الرتابة و الملل ، و لكن " سامّية " كانت الملل على هيئة مكنسة بشريّة !

الآن أنا مُطلّق بعد عامٍ من الزواج ، خطوة الطلاق ليست سهلة في مجتمعنا ، يجد الأزواج أسباب عدّة كيّ يظلوا مع زوجاتهم كالجنس المجانيّ و وجود الأطفال ، و غالباً تكون تكاليف الطلاق أكبر من الزواج نفسه ، و لكن بعد طلاقي من "ساميّة" و أني قد جربت الزواج الجسدي ، لم يكن التساؤل الوحيد هو " هل سأجد توأم روحي ؟ " لكن كان السؤال الأهم : "لماذا لم أستمتع بممارسة الجنس معها ؟! "

شاب مثلي يتزوج بعد الثلاثين لابد أن يلفت نظره هذا البرود الشديد مع زوجة ليست قبيحة ، نعم عاداتها سيئة ، ولكنها ليست سيئة في الفراش لهذا الحد ، لماذا كانت "سامية" مهتمة لهذا الحد بالتنظيف رغم أن أمها اشتكت لي يوماً أنها لا تقوم من مجلسها إلا نادراً ؟!

لماذا لم تمانع "سامية" طلاقنا و قبلته بسرعة و كأنها تنتظره ؟ لماذا لم أحب "مرام" رغم تلميحاتها المتكررة ؟ لماذا لم أشعر بشيء تجاه أيّ فتاة طيلة دراستي في الثانوية أو الجامعة ؟

كانت صدمة بالنسبة لي ، ومعجزة طبيّة لطبيبي المعالج ، ليست لديّ أي شهوة جنسية ، و لست مثلياً كذلك ، لقد حُرمت شهوة الجنس تماماً ، لماذا !

لقد عشت حياةً عادية ، لم تنم أمي مع خرتيت ، و لم أشاهد أبي يقبّل عنزة ، نعم لم يكن هناك جديد في حياتي ، و لم يكن لي هدف منها ، نعم ذاكرت لأن لا شيء أمامي أفعله سوى المذاكرة ، لم أشعر أني مُخير يوماً ، هذا أراحني كثيراً من الحيرة ، أعرف أني سأتخرج في كلية التجارة لأعمل مع عمّي في شركة رشيد الميزان كمحاسب ، فأترك كلية الهندسة التي قدرها لي التنسيق ، لأن طريقها مجهول بالنسبة لي ، نعم لم أتزوج "سامية " إلا لأن خالتي أرادت زواجنا و هي مَن أقنعني بفكرة الاستقرار ، و أن الزواج بعد قصة حب محض هراء مخرجين تافهين كنيازي مصطفى ، نعم قررت أن أطلّق "سامية " ، لكني ذكرت لك أنها استدعت أباها ليلمّح لي قبلها بشهر كامل حول " كيف تُرضي زوجتك! "

جهاز العاطفة و جهاز الإنسان تحدثا كثيراً و كثيراً ، لكن ..

الآن أدرك ..

لم أكن إنساناً من قبل !

تمّت،،

قانون المدَينة



الأرض رحبة ، والسماء تمتد فلا يكدر صفوها مدخنةٌ عالية أو بناية شاهقة ، الأشجار وارفة الأوراق تحتضن مَن يستظلّ بها ، وكأنها مشتاقةٌ طال انتظارها لمشتاقٍ ، والشمس لطيفة لا تعكر صفو العاشقين ؛ فتلقي سناها كيّ يبدوان من عالم الخيال السرمديّ ، الأرض رطبة و كأنها لسعادتها بالعاشقين دمعت ، الأرض مُحرمةٌ على البشر جميعهم ، الكون كله قد وجد لهما .. للعاشقين !

يتهامسان في عذوبة ، تلكزه في كتفه مُعاتبةً في دلال ، فيحتال وجهه حزيناً ، فيهلع قلبها و تحتضنه ، يتبدل تجهمه لابتسامةٍ واسعة ، هذا ما يرومه .. حضنها !

تحكي له في طفولة ذكريات الأعوام الماضية ، رَغم أنه لم يفارقها و كان ظلّاً لها ، بل قُل تجسيداً لأحلامها ، و لكنه مستمتعٌ بعذوبة صوتها ، و براءة ملامحها و هي تروي كيف شغف به قلبها .

" كنت أشتري وروداً لصديقتي في عيد ميلادها ، ثم وجدتك تعبر الطريق غير منشغل بالمارّة ،

كانت عيناك كالنهر الراكد باطنه بركان ، شعرت أن شيئاً من روحي ينتمي إليك و .. أحببتك ! "

فتطلب إليّه أن يحكي لها كيف أحبّها ؛ فيمتنع ، فتعقد حاجبيها متذمرة ، هذا ما يرومه .. عبوسها !

" كنت قد رأيتك قبل أن أعبر الطريق ، ارتبكت ، ليس لأن عينيك الزرقاوتين فيهما سحرٌ مبين ، شعرت أنك تعرفين مَن أنا حقيقةً ، تعرفين أني لست كما أبدو ، شعرت أنك منبت روحي و .. عشقتك ! "

****

الغرفة ضيقة ، والحر يجثم على الأنفاس ، الهواء لا يتحرك ، الأفكار لا تتحرك ، كل شيء يرسف تحت وطأة الحر و .. الاكتئاب !

أجلس على طاولتي المتهالكة ، وأواصل الكتابة ..

****

البحر هاديء كروّحينا ، و الشمس في الأصيل تعدنا بليلِ دافيء يحتضن أحلامنا ..

تجلس على مقربةِ مني ، تستند برأسها إلى كتفي ، تتنهّد في رقةِ و تهمس :

" أريد كوخاً ريفياً نسكن فيه أبد الدهر ، نرعى فيه القطط و نأكل من خير الأرض ، نستيقظ على سنا الشمس يداعب أعيننا ،ونغسل أيدينا بماء النهر ، نفترش حديقتنا الغنّاء ليلاً ، تعزف لي بقيثارتك لحناً بدائياً يمسح من ذاكرتي مسخ المدينة الصناعيّة "

أمرر أصابعي في خصلات شعرها المُنسدل ، و أطبع قبلةً على وجنتها :

" المدينة الصناعيّة ! ، آه فاتنتي ! ، ما كنت لأنعم بقربك ، و ما كان لعينانا أن تلتقيا إلا خلسة ! ، ما كنتُ إلا فكرة ، و ما صرت حينها إلا طيفاً ! "

" على رسلك صغيري ، لا تفزع ! ، ما كنتُ إلا بوجودك ! ، وما كان لأحدِ أن يمنعني عنك ! "

****

زعانف المروحة كأنها تضرب الأمواج ، لا شيء يتحرك ، الذكريات ثقيلة مؤلمة ، ماكثةٌ للأبد في ذهني ، أكتب و أسرّ بآلامي للأوراق ؛ فتردّ البصر بكلِ موجعٍ !

ولكني أكتب ، هكذا قال طبيبي .. وماذا يعرف طبيبي ؟!

****

" لماذا تأخرتي ؟ و أين كنتي ؟! "

" كنت أبتاع لنا شيئاً من المدينة "

" أكنتي في المدينة ؟! "

" أنت تعلم أننا لا نستغنى عنها ! "

" أنا أعلم أننا قد استغنينا عنها ! "

" و لكني أدركت أني لم أستغنْ عنها "

وتولي ظهرها و تجرّ قدميها بعيداً..عند البحر..

****

ماذا يعرف الطبيب عمّن وقف وراء الأحلام مُشجعاً ، فلم يرتضْ دوره ؛ فوقف أمامها حجر عثرة ؟!

ماذا يعرف الطبيب عن بجماليون الذي خلق حبيبته العاجيّة ؟ هل يعرف أنها حقيقةً مَن خلقته ؟!

ماذا يعرف الطبيب ليتحدث عن نسيان الذكريات ؟!

****

تحمل حقيبةً ضخمة ، و تهروّل مبتعدةً ناحية البحر ، تسقط حقيبتها ، تتعثّر قدماها ، تسقط ، تلتقط ما وقع من الحقيبة ، الكوخ الريفي .. بيلسان الربيع .. قططنا الشيرازية ، تجمعها في توتر ، إنها عازمةٌ على الرحيل !

أقترب منها ، تهرول مبتعدةً ، تجذب المركِب إليها ، تلقي بالحقيبة في جوفه ، تنظر إلى عيني :

" قانون المدينة يحكمنا ، سنفترق بحكم القانون !
"

و تبحر مبتعدةً ، و في عرض البحر .. تلقي بالحقيبة .. تغرق الحقيبة بقططها و كوخها .. بذكرياتنا !

****

بماذا تفيد الكتابة ؟ لقد صدر المرسوم ، و تمّ النفيَ إلى أقصى بقاع المدينة الصناعيّة ..

و كان قرار المحكمة :

الحب مع إيقاف التنفيذ !

تمّت،،

بدائيّة



الشمس تغوص في الأفق ، السحاب كعيون متقدة في وجه السماء ، الطيور تبدو كخفافيش في لوحة السيلويت المترامية أمام ناظريّ ، الحمام الزاجل يرفرف في السماء يائساً أن تصل الرسائل لأصحابها ،كما هو يأسي أن ترد على مكالماتي..
"يارا" .. أين أنتِ ؟!
دأب يارا أن تستَيقظِ مبكراً في حدود السادسة والنصف مع نسمات الشروق المنعشة ، ثم تحتسي عصير البرتقال في عجالة وهي ترتدي ملابسها ، ثم تستقلّ الحافلة المتجهة نحو الحي السابع حيث مقرّ شركة الميديا التي تعمل بها مصممة فوتوشوب ، إلى أن تنتهي ساعات عملها في الرابعة عصراً ، فتهرع لأي سيارة أجرة لنتقابل على دفاف النيل في منطقة الزمالك نشهد الغروب سوياً ، ثم نعود لشقتنا الصغيرة في حي فيصل ، نشاهد فيلماً ثم نستمع لصوت فيروز يشدو بينما نحضّر العشاء معاً ، وعلى المائدة نتبادل أطراف الحديث بين المزاح والمناقشات الجادة إلى أن يُغالبنا النُعاس ، فنخلد للنوم متعانقين نلتمس الدفء في تلك البرودة القارصة.

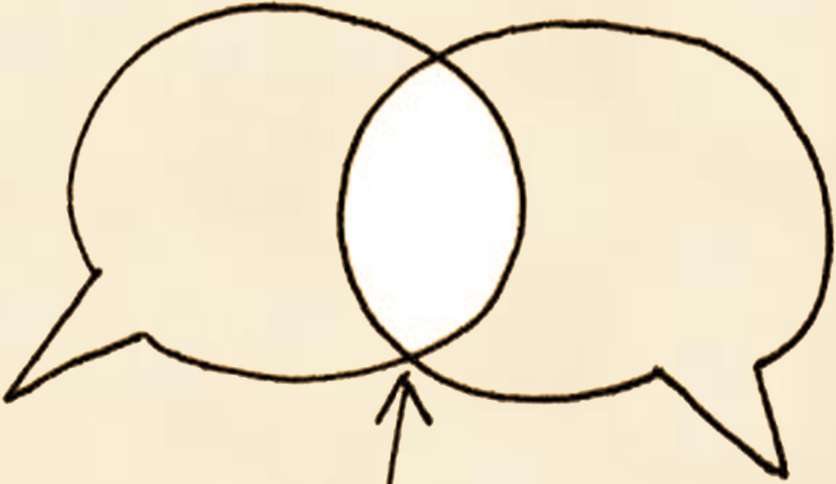
أين هي يارا ؟
استيقظت من نومي لم أجدها ، أحاول الاتصال بها ، هاتفها مغلق ، أتصل بمقر شركتها ، لم تحضر ، وهي النشطة التي لم تتغيب إلا يومي خطوبتنا وعُرسنا على مضض !
العجيب أنها لم تشرب عصير البرتقال المقدس ، فقط ورقة جريدة مبقعة بالزيت عليها بقايا سمك من الليلة الماضية ،لقد رمينا البقايا خارج الشقة بالفعل قبل أن نخلد للنوم ، لأني لا أطيق رائحة السمك ناضجاً كان أو متعفناً ، لكنها أصرت أن نشتريه : لحاجة في نفسي وأراك لا تبخل عليّ بوجبة سمك !،كذا بررت ولعها المفاجيء بالسمك..
يرن الهاتف ، إنه مدير الشركة يخبرني أنها تركت هاتفها مغلقاً في مكتبها البارحة ، فأستقلُّ الحافلة متجهاً لمكتبها لأحضر هاتفها الذي تتأكد من وجوده معها قبل أن تتأكد من وضع ردائها على جسدها.
وفي الشركة يقابلني المدير الشاب بابتسامة مهذبة و يدس في يدي هاتفها ، ثم يهمس لي في عتاب :

قل ليارا أن إعلاناً لشركة اتصالات لا علاقة له
بكوبري ستانلي في أعلى البانر تُحلّق حوله
فراشات!
استغربت لأن يارا كانت مميزة في فهم
التصميمات والإبداع في التعبير ، أذكر تصميمها
البديع لإعلان شركة أحذية شهيرة " نايك " عبارة
عن ورقة امتحان مكتوب عليها سؤال اختيار من
متعدد والاجابة الصحيحة هي اسم الشركة مع
علامتها التجارية التي هي علامة " صح ، و قد
صممته في دقائق ونالت عليه مبلغاً كبيراً أتاح لنا
السفر أسبوعاً للغردقة.
أتصل بأمها و أنا أغادر الشركة ، فأعرف من نبرتها
أنها لم تر يارا منذ الأسبوع الماضي ، وتلك
المشاحنة التي دارت بينها و بين ابنتها التي -في
رأيها- فتاة لا تعرف مصلحتها ولا تريد الانجاب
ولا ترغب في الاستقرار!
إن يارا مجنونة ،أعلم هذا منذ زواجنا ورغبتها
المُلحّة أن نمضي يومنا الأول على رصيف
الكورنيش ، وإصرارها العجيب بعد عام من

زواجنا أن نرتدي ملابس المدرسة الثانوية وأن أذهب لأتعرف عليها من جديد!
هكذ كنت أعيش مع ألف يارا فاتنة ، وهذا يجعل توقع مكانها الآن مستحيلاً تماماً!
والآن أجلس أمد ناظريّ للنيل و تلك اللوحة الكئيبة .. أفكر : أين يارا ؟
وفجأة تلمع الفكرة في رأسي ، إن يارا ذكية بمكان ألا تضللني عن مكانها ، حتماً ستضع لي أدلة أهتدي بها إليها..
بقايا السمك صباحاً .. كوبري ستانلي الذي لا علاقة له بشركة الاتصالات ..

الكوبري يشق البحر كعصا موسى ، وأقف جوارها متعانقي الأيدي هامساً : متى تكونين سهلة المنال ؟
فترد في دلال : لمّا نعيش في الغابة حياةً بدائية ، تصارع الفهود لأجل سلامتي ، تقاتل أقوى رجال القبيلة لتحظى بقبلة مني!
لمّا لا تشاركني التكنولوجيا عناقي لك!
بدائية .. و لهذا أعشقها !

-4-



بَحثاً عن فِكرة !

-1-

الزمن لا يعود للوراء ، عقارب الساعة كأنها تفرّ من الجحيم في هلع ، الطريق أمامها مُمتد بلا نهاية ، و لا شيء يلوح في الأفق أن الفرار قد يفلح ، كُل ما ارتكبته بالماضي صار تاريخاً مُوثقاً ، يعكف المؤرخون على حِفظه و نشره بين العوام ، الكُل سيعرف عاجلاً غير آجل ، الفكرة ستَنتشر ، سيكذبون كثيراً ثم يُدركون أن لحظات "ما تُريد العقول تصديقه" لا يفلح معها أتقن أبواق الإعلام كذباً ، سيبررون حينها ، الكمال لله وحده ، و مَن منّا لا يفشل ؟ ، لكنك لا تُدرك أن هذه اللحظات دون غيرها لا يفلح معها التبرير .. الجميع قد أتى ها هنا للقصاص !

-2-

الأزرق وحده لون الحوت ، و الأحمر في الورد يبدو جميلاً ، و بأعلى الأصفر يتلألأ بدثار الشمس ، بينما الأخضر في الرِبوع يتريّض ، كان الأبيض لون الموت ، الحُمرة شحبت و الأخضر يبِس و البحر الأزرق اتشّح بالسواد ليلاً و الشمس اعتقلوها جهاراً و فزع الأصفر شريداً ، الأبيض وحده كان لطيفاً ، كانت الملائكة في قصصنا بيضاء ، و الفتيّات الفاتنات بيضاوات ، و حينما تعرف أكثر ، أكثر و أكثر ، الملائكة أساطير كونيّة و الفتيّات ماكرات كالأفعى ، و ظلّ الأبيض وحده .. لون الموت !

-3-

هناك صنفان من الموتى لا ثالث لهما ، الأول مات و لم يعرف ؛ فجحظت عيناه لا لنِزع الروحِ لكن للفجأة ، و لو أخبروه برسالة على هاتفه أو بوحيٍ استثنائيّ من السماء أو بكابوسٍ مُريعٍ في المَنام ؛ لكان غُسلُه أكثر هدوءاً ، كان مُتصلباً كالمومياء ، و عيناه تثبّان خارج محجريهما حتى اضطررنا لدسّها بأصابعنا للداخل كيّ لا يبدو الكفن مُرعباً ، و الثاني رقيق مُهذَب ينتظر في هدوء ساعة أجله ، يأتي ملك الموت مُستئذناً ، يرشفان سويّاً بعض الشاي الساخن ، ينظر حوله يتفقّد غرفته للمرة الأخيرة ، على الحائط مُعلقة صور موتى سابقين ، ا لجميع قد مات أو رحل مُبتعداً ، و لم يتركوا شيئاً من آثارهم إلا بضعة كلمات لا تزن شيئاً ، ملك الموت يتأفف ، يريد إنهاء عمله سريعاً ، كما أن الشاي ليس طيّب المذاق ، الأنثى حينما تغيب عن البيت يحتال كُلُ شيء لفوضى عارمة ، و إلا ما سبب وجود بعض حبّات الرمال في السائل الساخن ! ، كل شيء يذوب قد ذاب و بقيت الرمال وحدها تؤكد ؛ هناك فوضى عارمة ! ، هنا ينتهي من تفقّد غرفته الضيقة المظلمة و يبتسم في وداعة كطفلٍ يستقبل فراشه الدافيء ، ينهض ملك الموت في عجلة ليُنهي عمله و يرحل ، فقط هناك عقبةٌ وحيدة ؛ لم يكن في الكتاَب كيف تقبض روح .. ميّت !

-4-

يتجولان معاً في أرجاء المدينة ، هذا فستان أزرق بخطوط رماديّة ، سيجعلها فاتنةً ربما كحوريّة من عهد الإغريق ، غير أن الحوريّات لا يرتدين الحجاب الأخضر ، هنا يباغته داعٍ بأي قصة اجتمعتما ؟ ، فيسقط في يده ؛أيّ قصة ؟ أتلك الصوفيّة ذات المسحة الملائكيّة حينما رآها دون عين ؟ لا ، ذاك من الماضي السحيق و لو ذكرتها الآن أمامه لظنّ بعقلي الظنون ، إذاً أروي له كيف كان أول شجار بيننا لطيفاً ، تجاوزناه بكثيرٍ من الحُب ، لا .. ولا هذه ، تبدو سخيفة ، الشجارات في زمننا هذا تُفرّق بين اللحم و الدم ، و الواقعيّة التي ارتضيناها ديناً لا نكفر بها أبداً باعتناق قصص رومانسيّة حالمة ، هذه قصتنا إذن : "كُنّا .. ثم لمْ نعد كذلك !"

-5-

هناك رائحة زعفران تنبعث بقوّة من هذه الناحيّة من الشارع المُطلّ على كورنيش النيل ، رائحة نفّاذة تكاد تتخيّل معها أن أحدهم أفرط في التعطّر حتى استحوذت على روحه ، رَغم أننا في فبراير و في السابعة صباحاً إلّا أن دفئاً ما في صدرِك – ربما من أثر دخان النارجيلة - ، السماء صافيّة كوجه طفلةِ في حُضن أمها بعد غياب ، الشمس تُشرق على حياء كعذراء في خَدرها –كما قال العرب - ، كُلّ شيء رائع ، و قد تجد سرباً من السنونو يُحلّق حول هامّات المارّة في الطريق ..

متى توقفت الطبيعة عن التفاعل مع هموم البشر ؟

-6-

الطاعون ضرب البلدة كُلها،والجُثث تتراكم ،نعم طبيب البلدة يحاول جاهداً لإيجاد عقارٍ ،لكن أهل القريّة كانوا أكثر اهتماماً بالحوذيّ ، الرجل ينقل الكثير من الجُثث إلى عربته ،ويهروّل حُصانه جرّاً العربة ناحية أطراف البلدة،حتى الأسطورة القديمة أن الأطباء لا يمرضون أبداً قد فشلت في إنقاذ الطبيب،ثلاثة فئران فرّت في سفينة إلى أيطاليا ومنها لأوربا قتلوا ملايين البشر،كل هذه حقائق ستظهر فيما بعد ولن يجد القُضاة مُتهمين حينها؛في بطون القطط ربما يلقون عقابهم .

لم يفقد أهل البلدة الأمل بعد وفاة الطبيب، هناك الأم الكبيرة تُعالج بالأعشاء ،نعم لا شيء يفلح والكُلّ يموت،لكن الكُل يحاول،طاقة الدفع والمقاومة تجعل لنهايتهم معنى،ما أقسى أن تموت بلا معنى،الطبيب حاول ومات،الأم الكبيرة حاولت وماتت،لكن التاريخ سيذكرهم إلى أن يثمل وينسى كُلّ شيء،حتى يستأجره من جديد أحد الطُغاة،يبقى الحوذيّ..وحده..ينقل الجُثث.. يحرقها ..وحده ..ولا يموت ..لأجله ..وحده ..بقى الأمل !

-7-

الكائنات لا تتطوّر فجأة ، لن تستيقظ صباحاً لتجد قطّاً يتحدث إليك مُعاتباً " لماذا لم تضع بعض الحليب في العُلبة أيها البخيل القاسي ؟! " ، كلمة واحدة تحتاج أطناناً من السنين ، نعم السنوات كُتلة ، كُتلة من الذكريات و الندوب و التجاعيد ، و كي يتفاعل حيوان مع إيذاء البشر له على نحوٍ يطوّره من مُسالمٍ أليف إلى مُتوحّش ؛ربما بعد طنّ أو اثنين من السنوات ، لذا فلا تجزع أن القطط تموت في الطُرقات جوعاً ، لن تُدبر مؤامرةً تجاه البشر في هذه الحقبة من الزمن ، آخر ما تفعله هو مواء يقطع نياط قلبك ، و لكنك لن تُبالي .. قد تطوّرت سريعاً !

-8-

الأمطار تنهمر بغزارة و الرياح عاصفة تجتاح كُلَّ شيء قُبالتها ، و البشر يهروّلون في كل ناحيّة في فزع ، و البيوت تتهدّم خلفهم أو على رؤوسهم ، الدماء تتناثر و الأشلاء تتطاير ، إنه الوقت المُناسب لخروج الزومبي من المقابر لتكتمل اللوحة النهائيّة لآخر أيام الأرض .

و في رُكنٍ بعيد صوت موسيقى بيتهوفن ينبعث من بيتِ ظلّ صادماً وحده ، و فتاةٌ جميلة تأكل ما بيدها من حلوى "المارشميللو " ، و باليد الأخرى ترسم وجه فتاة حزينة تطعن قلبها بخنجر ، ثم تقف و تنظر إلى السماء من شُرفة بيتها في أسى : كَم أنا تعيسة !

-9-

لكاتبنا العظيم روايّات عدّة ، كتب عن الفتاة التي قابلها في ثاني سنوات دراسته بالجامعة و هام بها حُبّاً ، ثم تزوجها و أنجب منها طفلتين "تولا" و "كارما" ، و لمّا لم يجد نهايةً للأحداث غير الدراميّة ، لفّق نهايةً و أسند دور الضحيّة لزوجته ، جعلها تقتل "كارما" كيّ تنقذها من مرضها المُستعصيّ "لوكيميّا" ، طبعاً الزوجة تتوّهم هذا كله .. و لكنها قتلت بالفعل !

و روايّة أُخرى عن الفتاة التي قابلها في دراسته للثانويّة العامة ، و أعجَب بها ، ثم ماتت ، و لمّا كانت النهاية نمطيّة مُملة ، أسند لنفسه دور الضحيّة و قابل فتاةً أخرى جعلت حياته جحيماً ، لم يقتلها لأن الدم قد تزايّد في روايته الأولى ، فقط جعلها ترتاب في كل مَن حولها حتى أبيها ، الأب الحنون الذي لا يقسو عليها رحمةً بها من عصبيّة أمها ، و بعد فترة .. أُتهم بالتحرش بها !

لكن كاتبنا العظيم و بعد عاصفَة عاطفيّة ألمّت به ، وقف أمامها كالأبله لا يقول شيئاً ، رَغم ما بقلبه من حنين ، و لأن الموقف لا يمكن أن يمرّ بهذه البلاهة ، أراد أن يُنهيه كأيّ روايةِ أُخرى .. فـ كشف لها عن تاريخه الماضيّ و أنه لم يؤمن بالله يوماً قط !

لماذا لا نترك النهايات للقدر !!

-10-

ما اسمي ؟ وهل يهمّك في شيء أيها المُخادع ؟!
اسمي "يارا " أو "هيّام " وربما مع حلول الربيع أكون "سامية "،الأسماء لا تهمّ ؛فالهوية واحدة .. مكتئبة!
ماذا أفعل في حياتي ؟ أعتصر دميتي بأصابعي كي لا أنفجر باكيةً ، ولكني أنفجر باكيةً نهاية الأمر !
ما يبكيني ؟ وما شأنك ؟! أمثالك يحطمون أعصابي بمهاترات فارغة ، لماذا لا يعلن الرجل أنه وغد عديم الإحساس ولا يكلف نفسه مشقّة الادعاء !
أمشكلة حبٍ إذاً!
لا يا معتوه،أنا جميلة، مثقفة،فقط لم أجد رجلاً يستحق قلبي العاشق! و لكنك في العاشرة من عمرك !!

-11-

" ألم أحك لك قبلاً عن صديقتي هالة ؟ إنها فتاة رقيقة مثقفة بالفعل ، تقرأ لأناسٍ أسمائهم تصيب بالدوار ، وتتحدث كحكيمٍ من الصين طال تأمله تحت شجرة البلوط – طبعاً كما وصفت هي - ، إنها تعرف كل شيء عن كل شيء ، مرة كان أحدهم يتحدث في التلفاز عن الطمي المتراكم وراء السد العالي ، فأخذتها الحماسة وروّت لنا عن الذهب و البلاتين ، وكيف أن السودانيين يعلمون بأمر الذهب جيداً ، وأن إسرائيل بالفعل قد قامت بسرقة الكثير من هذا الذهب ، ونحن نستمع إليها في انبهار وجُلّ ما كنا نعرفه

عن السد العالي ؛هو حبيب ماجدة الذي تركها ليعمل في أسوان لأجله !
لهذا يعشقها الشباب المثقف،غيرهم يراها معقدةً نفسية،ولكنها ليست كذلك ، إنها مثقفةٌ بالفعل،ويخسر كثيراً مَن لا يحترم الثقافة ! "
ولماذا لا تكوني مثلها مثقفةً ؟ " أنا جميلة ! "

-12-

" هل حكيت لك قصة منار صديقتي؟ إنها جميلة ولا شك ،عيناها أشبه بعينّي الليدي آنا كارنينا في رائعة تولستوي،شفتاها كما وصفهما هيجو تماماً في "أحدب نوتردام" ،أزميرالدا الغجرية التي هام الضابط بشفتيها ، شفتا منار مثلهما تماماً ،شعرها فاحم طويل كشعر الفتاة الإفريقية في "ثقوب في الثوب الأسود"،شعرها الذي كان يسبح وراءها وهي تلاعب جاريتها على شاطيء النهر قرابة الغروب،حينما شاهدها الشاب الذي عانى الفصام وسقط في حبائلها مُغرماً .
منار رائعة،تراها صباحاً كشمسٍ مشرقة كالتي أشرقت على كروز وقت جاءت سفينة إنقاذه،شعرها ينسدل على كتفيها وتسير في خفّة ونظرات الشباب حولها كأنها تقول "إني مشتاق وعندي لوعة..ولكن مثلي لا يُذاع له سرّ"،للأسف لم تعش منار قصة حبٍ واحدة" .. لكنها مخطوبة !
" نعم ..الشباب الذي يعشق الفاتنات الحمقاوات فارغات العقول كثيرون بحق ! "

-13-

الكل على ما يرام يا سيدي ،الكل بلا استثناء،حتى هذا العجوز الذي صدمته سيارة ابن الباشا وحطمت عظامَه اطاراتُها،هو بخير تماماً ،لم يشكْ ولم يرفع ناظريه للسماء داعياً على الظالمين،فقط نظر لكيس الفاكهة التي اشتراها لأحفاده في حسرة؛فقد أنفق كل معاشه ليشتريها،أيقن أنه لن يسدد إيجار الغرفة التي يسكنها ولا فاتورة الكهرباء-رغم أن لا جهاز في تلك الغرفة ولمبة الجاز معه منذ كان في المهد صبياً- ،معاش قدره مائة جنيه لا يسدد أي شيء على الإطلاق،فقط يسدد ضربات مُحكَمّة لتاريخك المهني وأهميتك لدى الحكومة.

لقد رضى العجوز عن الموت،فإن كان (المعاش) لا يكفيه،فـ(الممات) خير له !

لكن العجوز لم يمت بسرعة كما تمنى،فقط المعاش ينفد بسرعة ، والعمر ينفد بسرعة ، والوظائف تنفد بسرعة ، لكن العذاب بطيء ، والموت بطيء،حتى هذا الشاب يأتي في بطء لينقذ العجوز ، بطء من الدهشة ،لم يتحرك أحد رغم أنها الواحدة ظهراً ولافته على قارعة الطريق أنه ميدان رمسيس ، يحمله الشاب ويهرع به نحو أقرب مشفى ،لتبدأ ملحمة من الإجراءات الروتينية ..

- لا .. لم أصدمه أنا .. وجدته ملقى على الطريق !

- ما دليلي ؟ أني أحمله أمامك ولو كنتُ مَن صدمه لفررت،ولأني لا أملك سيارة أصلاً!

- بطاقتي أنا !الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة وتسألني عن البطاقة !!

ولما سأله الموظف في غرفة الاستقبال عن سبب تواجده في ميدان رمسيس في تلك اللحظة،كان العجوز قد لفظ أنفاسه الأخيرة فعلاً!
لا تقلق سيدي،العجوز مات ومَن صدمه هرب، والشاب الشهم في قسم الشرطة لأنه..لم يذكروا السبب حقيقةً، وليسوا بحاجة للتوضيحِ، فالأمة كلها في خدمة جلالتك والشرطة،وإن كنا بلا أخلاق فلم ننسْ أن العبيد لا يسألون عن أفعال أسيادهم !
العجوز مات تاركاً وراءه أحفاداً كارهين لجلالتك، وشاباً مُستهتراً يرفل في سلطة سيادتك،وشاباً شهماً،ستلقاه قريباً رابطاً حول خصره حزاماً ناسفاً مندفعاً نحو موكبك!
لا تقلق يا سيدي،فالكارهون تعج بهم معتقلات معاليك ،والمستهترون لا يُسمع عنهم سوء،لأن مَن يسمع لا ينقل،ولعمري لم أر شاهداً يحتفظ بعينيه في محجريهما إن أفشى السر !
الانتحاريون يفجرون العبيد أمثالهم،فموكبك يا سيدي محصن، ميزانية الدولة بأكملها تُخصص لموكبك،وإن فجّر نفسه ستكون بعيداً وندع الأمر لرجالك،سيتخذون التفجير مطية للقبض على الإخوان المسلمين وغلق بعض القنوات الإسلامية.
يقولون أن عنده ابنة محجبة إرهابية بطبيعة الحال،لا تقلق يا سيدي،على باب جامعتها سيركلها أحد رجالك حتى الموت،ومع آخر أنفاسها سيخرج رئيس الجامعة مصرحاً :هذا جزاء البلطجة ومخالفة أخلاقيات هذا المجتمع النبيل !
الصحف ؟ ما بها ؟ تقول كلاماً خطيراً ؟

مَن قبلك سيدي اتبع سياسة : ماذا يقولون ؟ لماذا يقولون ؟ دعهم يقولون ! ،لكننا- وفي عهد التطوير و التنمية- طورنا السياسة إلى : ماذا يقولون ؟ كيف يقولون ؟ اقطع ألسنتهم !

والأمر بسيط للغاية ،أحد رجال الأعمال الملتفين حول ابن سيادتك حفظه الله،يشتري الجريدة فخوراً أن لديه رئيس تحرير متميز،ثم يقيله،لأن قلبه ضعيف لا يتحمل هذا الشرف العظيم !

لن يسمع أحد عن العجوز ولا الحادث ، ومَن يسمع سيتناسى ،مقتل عجوز هو موت هندوسي،انتقال من دنيا مظلمة إلى آخرة نورانية ، هكذا الفقراء في عهدك سيدي ، لا يمثلون عبئاً في دنيانا ، ونضمن لهم الجنة في أخراهم !

لن ينقل أحد هذا الخبر ، لأن الأهلي خسر من الترجي بلمسة يد واضحة ، ومنة فضالي أقامت حفل عيد ميلاد فاضح ، ومتعب يخطب يارا ناعومي والجمهور غاضب ..

الوضع مستتب معاليك فلا داعي للقلق ..

فقط إن تغاضينا عن غضب مكتوم من تعسيف الأمن ، وغلاء الطماطم ، وتزوير الانتخابات ،وفساد التعليم الجامعي إدارةً ومنهجاً ، وتقييد الإعلام وغلق القنوات و الصحف ..

كل هذا لا شيء،ما دمنا نملك الأهلي وبعض الفنانات المفضوحات وجزائراً على الطرف الأغرّ من الخريطة؛فالوضع مستتب!

تلك ليست نشرة الأخبار سيدي؛فقد أغلقنا كل القنوات الإخبارية بالأمس !

وهنا صاحَ السكيرُ في لوثةِ عقلٍ : لقدْ ماتَ الإلهُ ! ، وهوى بعدَ جلالة، وسقط بعد علوٍ ، واستوى بالعباد !

فيهرعُ مَن بالقصرِ نحوه وصاحوا جميعاً: أتكفر ؟؟

فيرد وعيناه تقفزان بجنون : لقدْ خلقَ ونحنُ خلقَنا ، لقد فجرْنا وصرّحنا بالفُجرِ ، متى ينطق ؟ متى ينطق؟؟

ويأتِي رجلٌ يسدلُ السوادَ على رأسه ويقولُ في هدوءِ ورصانة : لقدْ حكمَ الإلهُ الأوحدُ لأنه حرمَنا الخيرَةَ ، إنه القهرُ الذي يحتميَ به كي تستقيمَ ظهورُ الرقيقِ !

ويندفعُ نحوَ البقعة المكدسة رجلٌ فجُ المظهرِ فاقعُ الألوانِ ويصرِخُ : كيف نقتلُ الإلهَ وَقدْ حرمَنَا الأسلحةَ ؟ كيف نكيدُ له وقدْ قصر على نفسه الدهاءَ ؟ كيف نفعلُها وقد كتبَ في القدرِ ألا نفعلْها ؟!!

وتصدرُ همَهمةٌ عاليةٌ من الجمعِ الحافلِ ، حينما سقطتْ الثريةُ على الأرضِ ، فأصدرتْ دوياً صمّ العقولَ ذاتَها ، فالتفتَ الجميعُ لأعلى ، ليجدوا رجلاً يبدو عليه الوقارُ ، ملتحياً يرتدي بزةً فاخرةً ، ويقول في رصانة: أنا ربُكم الأعلى وقد منحتَكم ما لم يمنحُه الإلهُ !

هنا ....

يتحرك الجمعُ ... ويتسلق الدرجَ .. وعلى العيونِ ارتسمت نظراتٌ وحشيةٌ ..

أغلقَ أحدُهم بابَ القصرِ .. ودوى صراخٌ هزّ السماواتِ والأرضَ !

-"سنعلن الحرب عليه !"

-" لا .. دعوه ، فهو ضعيف لا يحتمل كيد امرأة !"

-"لكنه فاق الحد ولا بد من يد صارمة تصفعه !"

-" سأتكفل وحدي أمره ، فلا نحتاج العنقاء لتداوي نزلة برد !"

- " إن احتجتِ شيئاً، فنحن معكِ دائماً "

- " أبقاكنَ الله دائماً لي سنداً "

******

-"لما تفعل ما تفعل؟ هل صرت متحجر القلب ؟!"

- " وهل يعنيكِ تحجر قلبي في شيء؟"

-" لست أنت ، بل مسخ قميء نجس!"

-" ربما هي نجاستك ما تطغى على المكان "

-" قاتلك الله أيها الدنس ! فأنا طاهرة الطرف حسنة الخلق !"

- " عليكِ سقاية كلب ، قد يغفر الله أفعالك !"

-"أأنا زانَية أيها الخنزير ؟!"تنهار باكية ..

-"دموع الذنب لا تنفك تعلن عن المعاصي !"

-" لا رحم الله فيك قلامة ظفر !"

- " عليكِ الدعاء لنفسك كي تنجو مما حاق بها !"

-"سأدمرَك ، سأدعو الله بهلاكك ، سيخسف بك الأرض "

-"يوم يفر المرء من أمه وأبيه ، لن تبحث مخدوعة عن خادعها !"

-" لم تخدعني ، أنت ساذج أحمق ، لا تخدع طفلاً حتى !"

-"لست بحاجة لخداع طفل ، فالحياة كفيلة به !، انظري لنفسك !
جففي دمعك !، طهري ثوبك !"

-" أنا طاهرة !"

-" فتاة القرية الموحلة تجد نفسها فاتنة وسط أبقار الحظيرة !"

-" أنت ملعون !"

-"أنا لعنتك !"

-" ألا يكفيك تدميري؟! لِمَ الانتقام؟"

- " ولِمَ انتقم وانتِ تدمرين نفسك بنفسك ، لم يكن الجاني بحاجة لقتل ما دامت الضَحية ستنتحر !"

-" لست ضحية ، سأقتلك !"

-" قتلي لن يضيف لنفسك إلا التأنيب والذنب !"

-" والراحة والانتقام أيضاً"

-"لا راحة بعد انتقام !"

-" لا أريد راحة "

-" هكذا انتقمت لقتلي !"

-"ملعون ملعون !"

******

-" ما فعلتِ معه؟"

-" لقد دمرته تماماً ، تركته باكياً كعذراء أُغتصبت !"

-" لقد نال ما يستحق !"

-" نعم .. ما يستحق "وتنهار باكية ..

-" ما زلتِ تحبينه ؟؟؟"

-" لا ، فكراهيته تأصلت وتشعبت بقلبي "

-" مالك تبكين إذن؟!"

-" لأني كرهته !"

-" غريب أمرك !"

-" أمر الشيطان دائماً غريب "

-" لستِ شيطانة !"

-" لكنيَ انسقت وراءه كبهيمة الأنعام !"

-" كلنا نخطيء "

-" لكني فعلت ما حذرت منه الناس ، لقد أمرت بالمعروف ولم أؤته ، ونهيت عن المنكر وأتيته راغبة !"

-"الله يغفر الذنوب جميعاً"

-" رحماك إلهي !"

******

-" هل ما زلت تحبها؟!"

- " خلطاً للأوراق حدث ، وظُنّ أن الاحترام حباً !"

-" ألم تحبها؟!"

- " أحببت فيها نهمها للعلم ، واحترامها للفكر ، وعرضت عليّ حبها ، فدُهشت ،وقبلت!"

-" ولِمَ دُهشت ؟!"

-" رهبان العلم لا يتزوجون !"

-" لكنها فتاة !"

- " لم أنظر لها يوماً كفتاة ، كانت راهبة علم مبِجلة، سمائية الشأن ، ويوم عرضت عليّ حبها سعدت ، فمحظوظ مَن تزوج راهبة !"

-"أخطأت التقدير "

-" بل أخطأت هي التصرف "

-" كيف؟"

-" تذكر في الأساطير الإغريقية ، حينما كانت الآلهة تعشق رجال الإنس ، فتتنازل عن ألوهيتها لأجل أن تتزوج عشيقها ، لكنها لا تدرك أن عاشقها إنما عشقها لألوهيتها !"

-"لكن القصة تكتمل بزواجهما !"

-" بعدما صارت كغيرها ، صرت أعدد أخطائها ، فاسودت في عيني بعدما كانت باهرة ، ورأيتها تكيد لحبها ، فقلت : مالها ؟تحطم عظامها ! ، فضاق الصدر بما ماج ، ولم يعد لصبري احتمال "

-" حري بك نصحها ، لا تركها في غياهب الظلمات "

-" صارت يا فتى كغيرها ، ونبلها خاصمها ، وبهاؤها صار ذكرى !"

-" كان عليك نصحها مهما صار شكلها "

- " نصبتها حكيماً لذاتي ، فكانت تنصح بالخمر والمعازف! ، وصديقك يرى ولا يصدق ، ثم صدق وتعامل ، ويوم عاد إليه رشده ، قال: مالي زلت معها وقد صارت كغيرها؟!"

-"هدى الله الضالين ، وهداك سواء السبيل !"

******

أنشودة الحكمة:

"لا قاتل الشيطان خائر ، ولا نافسه عاص ، ولم يهزمه حائر ، ولن يكيد به عاجز

الستر لم يكن للحروق ، بل لحفظ جواهر المكنون ، لا تهتك الستر بيدك ، ملعون أنت ملعون!

لا تناجي القمر بحب الغريب ،فخالق القمر أنزل الهدي بالمعروف، ولم تكن عبادته بعشق المنكر والمغلوط

******

-" إني أحبه"

-" وتنطقين بالفُجر جِهاراً ولا تخشين ربك ؟!"

-" لم يكن الحبِ خطيئة ، إني أحبه وسأصون حبي "

-"لم ينعم أبداً مَن نام بجحر الثعابين !"

-" ليس ثعباناً ، هو ملاك نوراني "

-" لكنك ستسلبينه نوره بحبك "

-" بل سأزيده بهاءاً "

-"هل سيتزوجك؟"

-" حتماً سيفعل ، فهو ملاك !"

-" الملائكة لا تتزوج!"

-" سيفعل هو !!"

-" غفر الله لكِ ،أين دينك؟؟"

-" هو دنياي ،و به ينصلح ديني "

-" ما انصلح عوج من ظل ، وما لبث صلاح من عجز "

-" حبي يهبني القوة والثبات "
-" سيدمرك حبك ويسلبك الحياة "
-" سيقيمني إن أسأت "
-" لا تصح صلاة في أرض نجس "
-" حبنا هو الطهر ذاته"
-" لن يبقى طاهراً، ما دام يحيق به الدنس "
-" سيهدينا الله للصواب "
- " لم يتب قاتل التسع وتسعين نفساً إلا بهجر أرض الفساد ، ولن تصلح نفس في أرض المعاصي"
-" سأجعل من حبنا روضة من رياض الجنة "
-"حتى سحرة فرعون لم يجعلوا من العصا أفعى !"
-" حبنا ليس عصا ، وجنتنا ليست أفعى"
-" إنما يزين لك الشيطان ضلالاتك "
-" ليس للشيطان محل في حبنا "
-" إنما الشيطان راعيه ، هل يعلم أهلك بحبكما؟؟"
-" لا ، لكنهما سيعلمان قريباً "
-" حينما يصير إعلامهما لإنقاذ كارثة حادثة"
-" لن تحدث كارثة ، أنا أدير الأمور جيداً"
-" بل تديرك الأمور وتسوقك للهاوية"
-" أعلم ديني جيداً"
-" والعلم بلا تطبيق كسلعة بائرة ، أو كنجمة معتمة "
-" إني أحبه بشدة، وحبي هو فطرتي "

- " نبتت مريم نباتاً حسناً، واستحق ابن نوح الغرق مع الظالمين"
" سأحافظ على حبنا"
"لم يكن من سبل الحفاظ الإفساد!"
" تجادلين "
"تتجملين "
" لست قميئة"
" كغانية تفسد جمالها بالمساحيق !"
" بل غانية ارتدت أرق الأثواب وتعطرت بالطيب"
"وعرضت نفسها على المارة ، فهذا يشتهيها وذاك يقول: هي لي !"
" أنا ملكه وحده "
"أنتِ أمة ربك"
" ولَن أعصيه"
"تهدم المعبد أخية !"
"بل أقامه الصالحون المتحابون "
" حامل المسك لا يقيم مع نافخ الكير "

******

-" يقولون أنها بدأت تستعيد نشاطها"
-" لم تكن نشيطة قط ، إنما استقت علمها مني ، لكن إنكار الفضل كالولادة عند المرأة ، عسير الحدث حبيب للنفس!"
-" تقول أنها تقدر لك ما فعلت"

- " دعها تقول ، فالكل يقول ، شكرني أبي يوماً أني نظفت سرواله من الوحل ، وتناسى شكري على إنقاذه من حادث السيارة التي وحلت سرواله!"
-"هل ترى أنها ما زالت تحبك؟"
-" معذبة هي بين لظى حبي ووجوب كراهيتي ، كعهدي بها حائرة ، على أية حال الذئب الذي تغذيه أكثر هو الفائز لا محالة "
-" وأيهما أقرب إليها؟"
-" كراهيتي ، مبرر لذنوبها ، دافع لنشاطها المزعوم ، قولة رائعة لحماسة الجمهور الملتف حولها !"
-" لكنها لن تنتقم منك حسبما قالت"
-" قالت أنها تحبني وهي تسب عهدها معي ، ربتت على كتفي وهي تطعن بالخنجر في ظهري "
-" لكنك ظلمتها كثيراً ، وكانت تدافع عن نفسها "
-" حينما تقتني عقد مردوخ ، فلا تلومن إلا نفسك !"
-" ربما أرادت إصلاحك "
-" كعهدي بها ، حائرة ، بين كونها مصلحة أو عاشقة ، دعك من حيرتها بين ذاتها وذاتي "
-"لكنها أرادت الإصلاح"
-" وما البدعة إلا اتباع مع سوء عمل "
-" ما دمت تعلم ، لماذا لم تنصحها؟؟؟"
-" لم يمِل قوم على نبيهم رسالته!"
-" لكنها إنسان يخطيء ويصيب "

-" وأحبت فتى يخطيء ولا يصيب !"
-"لكنها رأتك عظيماً "
-"ولم أخدعها حينما ذكرت لها مساوئي ، لكنها أبت إلا الإصلاح ، وحقيقة الأمر أبت إلا الهبوط "
-" ما خططك بشأنها؟"
-" لا شيء ، واقعة آخذ منها العبر ولا أعتبر ، لكنها فتاة كغيرها "
-" وفق كلامك تجمع لك العدة ، ستصمت؟"
- " صديقي ، لم يولد بعد مَن ينتقم مني ، سُلطت على أنفس كثيرة ، ومهما تكاثر الأعداء فحصوني منيعة ، لكن لن أبرز أسلحتي إلا بعد الرمية الأولى ، فليس من الحكمة العمل على توقعات وظنون ،إنما التحسب لها هو المندوب "
-" أنت مقبل على حرب طاحنة "
-" لا حروب مع ذباب يا صديقي "

******

هو: إني أحبها !
أنا: كم مرة رددت تلك الكلمة!!
هو: تلك هي الخاتمة الجميلة !
انا: خواتيمك كثرت !
هو:لا بأس بمزيد من الكربون ما دامت ماسة تنتظرنا !
انا: لكنك تكسر الماسة بيديك !
هو: لأنها لم تكن حقيقية ، الماس لا ينكسر !
انا: الماس في يديك مجرد زجاج !

هو: و ربما يجعلني الماس ثرياً !

انا: أنت لا تريد الثراء ، إنما ديدنك ، تبحث عن الثرى !

هو: علّي أجد كنزي بين الثرى !

انا: الكنوز تُذهب العقل !

هو: وتجلب الترف والرخاء .

انا:لا قيمة لإنسان بلا عقل!

هو: مات الإنسان حينما تخلى عن العقل .

انا: أنت ميت إذن!

هو: نعم .. أنا ميت !

انا: وما جدوى الأموال مع الأموات ؟!

هو: الاكتئاب يجعلك ترقص أمام المعاقين شماتة ، بل يجبرك على شراء الكتب وأنت كفيف !

انا: إنه انعدام العقيدة !

هو: بل لعنة الرب !

انا: الله رؤوف بالعباد .

هو:وكذا فهو منتقم جبّار .

انا: من الظالمين .

هو: وما أبشع ظلم النفس !

انا: بإمكانك تدارك الظلم بإقامة العدل .

هو: لا تجعل القاتل قاضياً بالقسط !

انا: القاتل يتوب .

هو: والجريمة تبقى .

انا: والله غفور .

هو: والذاكرة لا تُمحى !

انا: دعك من العامة ، فلن يحاسبوك .

هو: العامة حمقى ، والحمق ملعون ، ولا يعنيني حديث الحمقى مهما كانت صحة السند !

انا: إذا وما يثبطك عن التوبة ؟

هو: تلك النفس التي اعتادت البغي !

انا: علّها بالصبر تتوب .

هو: لا تطالبني بالصبر ،وبقلبي بركان يفور !

انا: سينزل الله على قلبك برداً سلاماً ، فقط تب !

هو: لقد فار البركان وترك سحابة معتمة ، فلا أبصر ما أروم !

أنا: نور الله يضيء الظلمات.

هو:أويذهب نور الله؟

انا: حينما يصر القلب على الظلام .

هو: لكني تبت مراراً ،ولكني أعود أدراج الهلاك .

انا: لأن التوبة صارت نزوة ، وكلمة : شيخ صارت طَلقة.

هو: إنه القدر يسير عكسي .

انا: لو أراد ربك أن يخسف بك الأرض لكان ما أراد ، فلما يُسيّر قدراً ضدك؟

هو: لأن بقائي خطر.

انا: وهل يحتاج العزيز جل جلاله وعظم ملكه إلى إرهابك وهو قادر على خسفك؟

هو: وبمَ تفسر معاندة الحظ؟

انا: أنك آمنت به، ولم تفسر شئونك بالابتلاءات .

هو: وهل أبتلى وانا عاص؟!، الابتلاء للمؤمنين .

انا: نعم ،يبتليك لتؤوب .

هو: ولكني أعود .

انا: وربك لا يملّ .

هو: ونفسي لا تملّ الذنوب!

انا: عاملها بما ينفع .

هو: لم أبك يوماً من خشية الله .

انا: ولكن لم تتحجر الدموع.

هو: هل من أمل؟

انا: باب السماء مفتوح

******

نعم المكتئبون لا يدخلون الجنة، والمنتحرون لا يشمّون ريحها ، والقاتلون مصيرهم حالك السواد ..
لا لجرائمهم تجاه أنفسهم ومجتمعهم .. لكن لتعلقهم بـ "أمل" .. تلك الفتاة الرخيصة التي صورت لهم أن اكتئابهم لابد من ترويح عنه .. و أن فكرة انتحارهم ساذجة فالحياة جميلة لطيفة .. و لأن القتل يمكن النجاة منه بمحامٍ محنك أو عفو جمهوري ..
تلك الفتاة التي لا تبيت ليلتها وحدها أبداً .. لابد من حضن شاب أو مراهق تبث فيه دفئاً كاذباً ..
تلك الفتاة عجولة غير متمهلة .. فالوقت يداهمها و سرها سيُفضح لو بقيت حتى الصباح .. فتهجرك بقسوة و تلثم شفتاك بعنف .. هي مجنونة هيستيرية .. تكون في قلبها أقرب عاشق .. و بين عشية و ضحاها .. بل و بين تغّير موقع عقرب الثواني تصير أكثر البشر جحوداً لك ..
أمل لا تعمل وحدها أبداً .. هناك قوّاد شهير يدعى " التحدي " .. ستجده يخرج لك من الظلمة لما تهجرك أمل فيِقول لك في حماسة : انهض يا لكع .. أنفاسك في صدرك لا تهدرها سُدى !
و كأي قوّاد يخاطب شهوةً غريزية .. فأنت تطيعه في بلاهة و تخلع عنك اكتئابك و تتصل بأمل مجدداً لتمضي معها ليلة حمراء فاجرة .. و تستيقظ لتجد أنها سلبتك أموالك و عذريتك و برائتك و هجرتك ..

و تنزل إلى الشارع مهموماً مكتئباً .. فتجد شيخاً طاعناً في السن
يُدعى " الإصرار " .. يقول لك في حكمة : يا ولدي أنت لا تملك
شيئاً لتخسره فلماذا لا تضاجع أمل ؟
و يأتي التحدي في خيلاء ووراءه تتسّحب أمل و هي تعدل مكياجها
..
فأصرخ في وجوههم جميعاً :
نعم ليس لدي ما أخسره .. لكن بإيماني بكم سأملك ما سأخسره
حتماً .. لا أريد الإيمان بشيء .. أفضّل الكفر البيّن من الإيمان
الزائف ..
وأخرجت خنجري و طعنت الإصرار في قلبه فتهاوى و ذاب على
الأسفلت .. و أدركت التحدي قبل أن يفرّ .. و أسقطته أرضاً و
انهلت عليه بالطعنات .. و نهضت ملوثاً بالدماء متجهاً نحو أمل ..
أمل المعتدة بنفسها .. أمل الفاتنة اللعوب ..
و من خلفى أتي اليأس بعباءته السوداء و الموت في أعقابه مسربلاً
في سوادِ ..
و أحطنَا بأمل .. التي ظلت شامخة حتى و أنا أخلع عنها ثيابها ..
ظلت واثقة من نفسها و أنا أغتصبها بعنف حتى لفظت أنفاسها
الأخيرة ..
ثم التفتّ للموت و كشفت له صدري ..
فخفت وجوده و شحب .. و صار شبحاً و تردد صوته كأنه يأتي من
فضاء بعيد :
بموت الأمل .. لم يعد لي معنى !

قمت من النوم فزعا ، وقد قضى الليل شطرا ، وقد قارب الفجرَ ، فقمت وتوضأتَ ، وصليت لله وترا ، وذرفت العين دمعا ، وقلت لله شكوى ، إن مالى صار صفرا ، وغدت ديونى جبلا ، ولم احمل لهذا همّا ، فأنت ربى فكن لى عونا ،ولا تُحملنى من عيشى نَصَبا ، فقد كدت اتردى ؛ حين فقدت بين الناس قدرا ، وصرت مذموما بينهم ولم ارتكب إثما ، وأهان المهانُ ذكرى وكأنى لم أفعل حسنا ، فلم أسطع للظلم صبرا ، ومُلىء القلب حقدا ، وطفح السمع وقرا ، وذهبت للقاضى غضبا ، فلم يعرنى اذنا ، فصرخت فيه صرخة ، فانتفض منى هلعا ، فقلت له : مهلا ؛ لن اهدر لك وقتا ، قال وقد نفذ صبرا ، وازداد وجهه حمرة : قل ولا تبسط صار الوقت ذهبا، وحكيت له حدثا ؛ فلم يحسن الفهمَ ، فزدت له عمقا ، وبسطت له شرحا ، فصمت و شرد بصرا ، وقال : لك رب له المشكى ، دعوة فى الفجر للظالم بلوى .

تركته وعدت إلى بيتى مهتما ، ظننت أن لى فى الارض حقا ، لكن ظنى كان خطأ ، وصار حقى وهما .. أشكو إليك ربى ومن لغيرك الشكوى ، ظلم من العباد لا ادرى له سببا ،غير ان الشيطان كان للانسان ندّا ، ويبعث من الشرر نارا تلظى ، ويهول من مستصغر الذنب إدّا ، إلهى من سواك لمثلى عونا ؟ أنت الأوحد بلا ثان كنت الفردَ الصمدَ ، أتوب إليك رحمانى فتقبلها منى توبة ، زاغ الناس عنى ومُلئوا منى كرها ، وانا عبدك الذليل وأرغب فى الاخرة جنة .

و صبرت و طال بي العمر صبرا ، و إذ بصبري كحجارة تدفع الموجَ ، فلا الماء انحسر و لا الحجر استقرّ ، فنظرت للسماء علّ النجم بالآمالِ يهوى ، فإذ بالسحاب كئيب يرد البصرَ حسرة ، و إذ بي في الغمّ سَرِحا ، إذ تتراءى لي فكرة ؛ كيف صار الزنديق ورعا ؟ و كيف دعا بالإيمان كفرا ؟ ، فأخذت على فكرتي كأنها القشّة ، و قلت للساني : اليوم أنت كلبي ؛ فلا تتعدَّ !

بعدما طالت لحيتي حتى قاربت مِترا ، و خرجت على العامة أهتف بما يرغبونه و أقضي لهم وتَرا ، أحكي لهم مما روى الحمقى طرفة ، أن طالباً عهد إلى أمه ليلا ، و كانت ليلة امتحانٍ وعرة ، و قد ترك ما بيده و انشغل بأمه منكبّا ، و لم يستذكر من دروسه شيئا ، لكنه حفظ ما كُتب عن الوالدين بِـرّا ،و في لجنته أخذ يسطر ما حفظّ ، ليس عن الامتحان لكن ما ألهمته به ليلةُ البرّ ، و إذ بالمصحح يسكب على ورقته شايّا ، و يظن بين يديه مرجعا ، فيكلله بالامتياز في العلوم لأنه برّ !

و يصفق الجمهور من الأمهات لي فرحا ، إذ اسديت لهم خدمة ، و غداً يوم الأطفال سأروي لهم قصة ، عن الأب الذي لم يجلب لابنه حلوى ، فبات ليلته و أصبح نملة !

بحثاً عن إله

وقصص أخرى



لكني أكتب لأن هذا ما يجعل حياتي أفضل ، ويوم أُنهي مقالاً أو قصةً أو روايةً أو مسرحيّةً ، أشعر بالرضا التام عن نفسي ، حتى لو كان مقالاً مُملّاً عن عمل المرأة ، أو قصةً سخيفة عن الحب من نظرة عين ، أو روايةً سقيمة عن الاحتلال الإنجليزيّ الذي أفسد كلّ شيء في الهند ، أو مسرحيّةً ليست أفضل من مقال عمل المرأة !